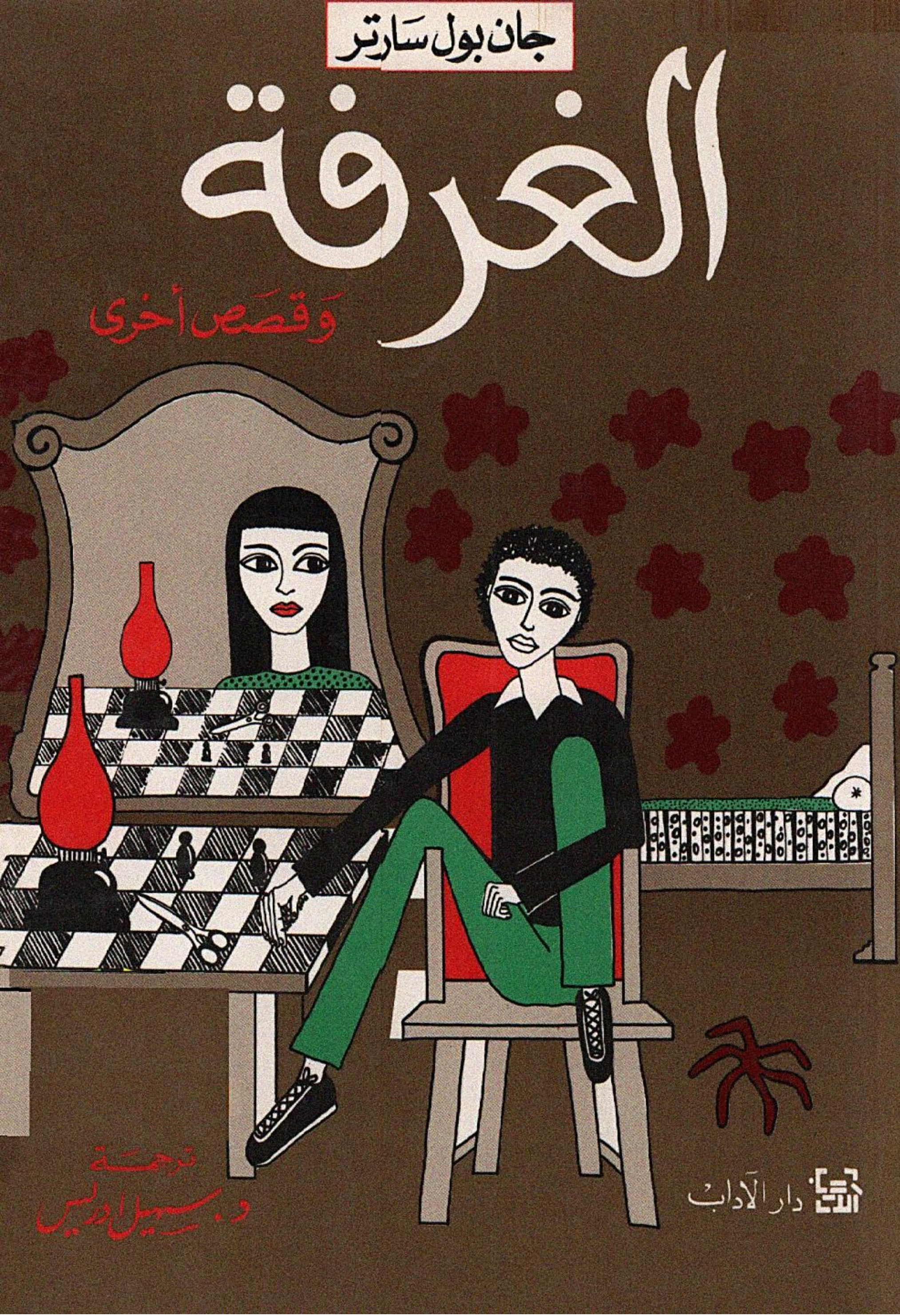

جان بول سارتر
الغرفة
وقصص أخرى
ترجمة
د. سهيل ادريس
دار الآداب

جان بول سارتر

الغرفة

وقصص أخرى

ترجمة

الدكتور سهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية

١٩٨٨

الغرفة

١

كانت السيدة داربيدا تمسك بقطعة من راحة الحلقوم بين أصابعها . وأدنتها من شفتيها في حيطة ، وأمسكت نَفَسها خشية ان يتطاير غبار السكّر الدقيق الذي كان منثوراً عليها . وقالت في نفسها : « انها وردية » . وفجأة عضّت هذا اللحم الزجاجي ، فامتلأ فمها بعطر منتن . « عجيبٌ كم يُرهف المرض الأحاسيس ! » وأخذت تفكّر في مساجد ، وفي شرقيين ذوي عذوبة مفرطة (لقد سبق لها ان كانت في مدينة الجزائر في أثناء شهر العسل) ورسمت شفتاها الصفراوان بسمة : كانت راحة الحلقوم ، هي أيضاً ، مفرطة العذوبة .

ووجب عليها ان تُمرّ باطن يدها عدة مرّات على صفحات كتابها ، لأن طبقة دقيقة من المسحوق الأبيض كانت قد غطّتها ، بالرغم من حيطتها . كانت يداها تُدحرجان حبوب السكر الصغيرة على الورق الأملس ، وتجعلانها تصرّ . « إن ذلك يذكّرني بأركاشون ، حين كنت أقرأ على الشاطىء » . وكانت قد قضت صيف ١٩٠٧ على شاطىء البحر . كانت تضع على رأسها آنذاك قبعة كبيرة من القش وشريطاً أخضر ؛ وكانت تجلس على مقربة من الأمواج ، وبيدها رواية لجيب او لكوليت إيفر . وكانت الريح تمطر على ركبتيها دوّامات من الرمل ، فتنفض بين الحين والحين كتابها ممسكة إياه بأطرافه . إن أحساسها الآن يشبه ذاك تماماً : غير أن ذرات الرمل كانت جافّة كل الجفاف ، في حين أن حُبيبات السكر هذه تلتصق قليلاً بأطراف أصابعها . وتمثّلت من جديد رقعة من سماء رمادية فوق بحر أسود . « إن « إيف » لم

تكن قد وُلدت بعد . » وأحسّت أنها مثقلة بالذكريات ، ثمينةٌ كصندوق صغير من الصندل . وعاد إلى ذاكرتها فجأة اسم الرواية التي كانت تقرأها آنذاك : كان عنوانها « السيدة الصغيرة » ، ولم تكن مضجرة . ولكنّ السيدة داربيدا أضحت تفضّل كتب المذكّرات والمؤلفات التاريخية منذ أن ألزمها ذلك المرض المجهول غرفتها . وكانت تصبو الى ان ينضجها الألم والمطالعات الرصينة والعناية الناشطة المتّجهة الى ذكرياتها والى أعذب أحاسيسها ، كما تنضج الثمرة المبكرة .

وفكرت ، في شيء من العصبية ، بأن زوجها لن يلبث حتى يطرق بابها . وكان من عادته ، في أيام الاسبوع الأخرى ، ان يأتي قرابة المساء ، فيقبّل جبينها في صمت ، ويقرأ « لوماتان » قبالتها ، وهو جالسٌ في الأريكة . اما الخميس ، فكان « يوم » السيد داربيدا : كان يقصد بيت ابنته فيقضي لديها ساعة ، من الثالثة الى الرابعة عادة . وقبل ان يخرج ، كان يدخل غرفة زوجته فيتحدث معها عن صهرها في مرارة . وكانت محادثات الخميس هذه ، القابلة للتخمين في جميع تفاصيلها ، ترهق السيدة داربيدا . كان السيد داربيدا يملأ الغرفة الهادئة بحضوره . ولم يكن يجلس ، بل كان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ويستدير حول نفسه . وكانت كل فورة من فوراته تجرح السيدة داربيدا كشظية من زجاج . وفي ذلك الخميس ، كان الأمر اسوأ من المألوف : كان حسْب السيدة داربيدا ان تفكّر بأن عليها الساعة ان تردّد لزوجها اعترافات « ايف » وأن ترى هذا الجسم الكبير المرعب يقفز من شدة الغضب ، حتى ترشح عرقاً .

وتناولت من الصحن قطعة من الحلقوم ، وتأملتها لحظات في تردّد ، ثم وضعتها بحزن : لم تكن تحبّ ان يراها زوجها وهي تأكل الحلقوم .

وقد انتفضت وهي تسمع الباب يطرق ، فقالت في صوت ضعيف :

ــ ادخل .

فدخل السيد داربيدا على رؤوس أصابعه .

قال ، على عادته كل خميس :

ــ انني ذاهب لأرى ايف .

فبسمت له السيدة داربيدا :

ــ قبّلها بالنيابة عني .

فلم يجب السيد داربيدا ، وغضّن جبينه بهيئة قلق : كان غيظٌ أصمّ يمتزج لديه كلّ يوم خميس في الساعة نفسها ، بأثقال عملية التمثُّل .

ــ سأمرّ على فرانشو بعد خروجي من بيتها ، فانا أودّ ان يحدّثها بجد وان يحاول إقناعها .

وكان يقوم بزيارات كثيرة للدكتور فرانشو . ولكن عبثاً .

وهزّت السيدة داربيدا حاجبيها ، وكانت في الماضي ، وهي في كامل صحتها ، تهزّ كتفيها . ولكن منذ أن أثقل المرض جسمها ، كانت تستبدل الحركات التي تتعبها اكثر مما ينبغي ، باشارات من وجهها : فتقول نعم بعينيها ، لا بزاويتي فمها ؛ وترفع حاجبيها بدل كتفيها .

ــ لا بدّ من محاولة انتزاعها منه بالقوة .

ــ لقد سبق ان قلت لك ان هذا مستحيل . ثم إن القانون فاسدٌ في هذه الناحية . وقد كان فرانشو يقول لي منذ مدة إنهم يعانون مضايقات لا تُتصوّر مع الأسر : فهناك أشخاص لا يقرّرون ، أشخاص يريدون ان يحتفظوا بالمريض عندهم ؛ وهكذا توثق ايدي الأطباء ، وكل ما يستطيعون فعله هو ان يُدلوا برأيهم وحسب .

وأضاف يقول :

ــ فينبغي ان يُحدث فضيحة عامة ، او ان تطلب هي نفسها حَجْره .

قالت السيدة داربيدا : ــ وهذا لن يتمّ غداً .

ــ طبعاً .

والتفت نحو المرآة ، فغرز أصابعه في لحيته وأخذ يمشطها . وكانت السيدة داربيدا تنظر بلا ودّ الى رقبة زوجها الحمراء القوية . وقال السيد داربيدا :

– اذا ظلّت على هذا الحال ، فستصبح اكثر جنوناً منه . إن وضعها وخيم بصورة فظيعة . فهي لا تغادره قيد أنملة ، ولا تخرج الا لتذهب الى مقابلته ، ولا تستقبل أحداً . وأقلّ ما يقال عن جو غرفتهما إن التنفّس فيه مستحيل . إنها لا تفتح النافذة قط ، لأن بيار لا يريد ذلك . كما لو أن استشارة المريض شيء لازب . إنهما يحرقان عطوراً في وعاء ، تشبه القذارة ، حتى ليحسب المرء انه في كنيسة . واني لأتساءل أحياناً ... إن لها لو تعلمين عينين غريبتين ...

قالت السيدة داربيدا :

– لم الاحظ ذلك . بل أنا أجدها طبيعية الهيئة . إنها تبدو حزينة بالطبع .

– بل إن لها سحنة ممتقعة . أتراها تنام ؟ أتراها تأكل ؟ ينبغي ألاّ تُسأل عن هذه الأمور . ولكني أعتقد بأنها ، والى جانبها رجل قويّ البنية كبيار ، بعيدة عن ان تغمض عينها في الليل .

وهزّ كتفيه واستطرد يقول :

– إن ما أجده اسطورياً هو انه لا يحق لنا ، نحن أبويها ، ان نحميها من نفسها . لاحظي أن بيار سيعتنى به عناية أفضل لدى فرانشو . فهناك حديقة كبيرة .

وأضاف وهو يبتسم قليلاً :

– ثم اني أعتقد أنه سيتفاهم بصورة أفضل مع أناس من جنسه . إن هؤلاء الكائنات الأطفال ، يجب ان يُترَكوا فيما بينهم ؛ إنهم يشكّلون ضرباً من المحفل الماسوني . وقد كان ينبغي و عه هناك منذ اليوم الاول ، واقول : إن ذلك لصالحه . كان ذلك لصالحه طبعاً .

وأضاف بعد لحظة :

– بل اقول لك اني لا احب ان اعرف انها مع بيار وحدها ، لا سيما ليلاً . تصوّري ان يحدث شيء ما . إن بيار يبدو مرائياً بشكل فظيع .

قالت السيدة داربيدا : – لا أدري ان كان ثمة مجال لقلق كبير هنا ،

مع العلم بأن هذا هو شأنه دائماً . كان يُشعر الناس بأنه يسخر منهم .
واستطردت وهي تتنهّد :
– يا للفتى المسكين ! من يصدّق ان من كان يملك مثل كبريائه يبلغ الآن هذا المبلغ ؟ كان يحسب نفسه اذكى منا جميعاً .. اتذكر طريقته في ان يقول لك : « انت على حق ... » ليغلق باب المناقشة ؟ إنها لنعمة له ألاّ يستطيع ان يرى حالتـــه .

وكانت تستحضر في استياء صورة ذلك الوجه الساخر الطويل ، المائل ابداً الى ناحية . ولم تكن السيدة داربيدا ، في الاوقات الاولى من زواج ايف ، تطلب خيراً من ان تكون لها مع صهرها بعض الصميمية . ولكنه كان قـــد ثبّط جهودها : فهو لم يكن يتكلم تقريباً ، وكان دائماً ما يوافق في عجلة وبهيئة غائبة .

كان السيد داربيدا يتابع فكرته فقال :
– لقد رافقني فرانشو في زيارة مؤسسته . انها رائعة . إن للمرضى غرفاً خاصة ذات ارائك جلدية وأسرّة على شكل دواوين . وهناك ساحة لكرة المضرب ، وسوف يقيمون مسبحاً عما قريب .

وكان قد انزرع امام النافذة ينظر عبر الزجاج وهو يترنّح قليلاً على ساقيه المقوّستين . واستدار فجأة على عقبيه ، منخفض الكتفين ، ويداه في جيبيه . وأحسّت السيدة داربيدا انها على وشك ان تنضح عرقاً : كان ذلك متشابهاً في كل مرة ؛ سيذرع الغرفة الآن جيئة وذهاباً كأنه دبّ في قفص ، وسيفرقع نعلاه في كل خطوة .

قالت : – ابتهل اليك يا صديقي ان تجلس . انك تتعبني .
واضافت في تردّد : – إن لديّ امراً خطيراً اقوله لك .

فجلس السيد داربيدا في الأريكة ووضع يديه على ركبتيه ؛ وسرت رعشة خفيفة في صلب السيدة داربيدا : لقد آن الأوان ، فيجب ان تتكلم .
قالت في سعلة ارتباك :

ـ انت تعلم اني رأيت ايف يوم الثلاثاء .
ـ نعم .
ـ لقد تحدثنا في أشياء كثيرة ، وكانت لطيفة جداً ؛ لقد مرّ وقت طويل لم أرها فيها واثقة من نفسها إلى هذا الحدّ . وهكذا طرحت عليها الأسئلة ، وجعلتها تتكلم عن بيار ..
واضافت ، وقد عاودها الارتباك :
ـ وقد علمت انها « شديدة » التعلّق به .
قال السيد داربيدا : ـ أعرف هذا جيداً .
كان يزعج السيدة داربيدا قليلاً : فقد كان مما لا غنى عنه ان تُشرح له الأمور بدقة ، وان توضع النقاط على الحروف . وكانت السيدة داربيدا تحلم بأن تتعاطى مع أشخاص مرهفين حسّاسين يفهمونها من كلمة واحدة .
واستطردت تقول :
ـ ولكني أقصد انها تتعلق به « على غير النحو » الذي كنّا نتصوّره .
فأدار السيد داربيدا عينين غاضبتين قلقتين . شأنه كل مرة لا يدرك فيها تماماً معنى ايماءة او نبأ :
ـ ماذا يعني هذا ؟
قالت السيدة داربيدا : ـ لا تتعبني يا شارل . ينبغي ان تفهم انه يمكن للأم ان تجد مشقة في قول بعض الأشياء .
فقال السيد داربيدا في غيظ :
ـ اني لا أفهم كلمة واحدة مما تقولينه لي . على انك لا تقصدين ...
قالت : ـ بلى !
ـ انهما لا يزالان .. لا يزالان الآن ؟
ـ نعم ، نعم ، نعم .
قالتها منزعجة في ثلاث ضربات جافة . فباعد السيد داربيدا ما بين ذراعيه ، وخفض رأسه ثم صمت . وقالت زوجته في قلق :

ـ شارل ، ما كان ينبغي لي ان اقول لك ذلك . ولكني لم اكن استطيع ان أحتفظ بهذا لنفسي .

قال بصوت بطيء :

ـ ابنتنا ! مع ذلك المجنون ! لقد بلغ به الأمر انه أصبح ينكرها ، فهو يسمّيها « اغات » . ولا بدّ انها قد فقدت حسّ الواقع .

ورفع رأسه ونظر الى امرأته في قسوة :

ـ أأنت متأكدة من انك قد فهمت جيداً ؟

ـ لم يكن ثمة شك ممكن .

وأضافت بحيوية :

ـ اني مثلك ؛ لم اكن أستطيع ان أصدّقها ، والحق اني لا أفهمها . اني بمجرد ان أفكّر بأن يلمسني هذا الشخص المسكين ...

وزفرت تقول :

ـ مهما يكن .. فانا افترض أنه انما يستولي عليها من هذه الناحية ...

قال السيد داربيدا :

ـ أسفاً ! هل تذكرين ماقلته لك حين اتى يطلب يدها ؟ لقد قلت لك : « أعتقد انه يروق ايف . اكثر مما ينبغي » فلم تشائي ان تصدقيني .

وضرب الطاولة فجأة بيده واحمرّ بعنف :

ـ إن هذه دعارة ! إنه يأخذها بين ذراعيه ويقبّلها وهو يناديها « أغات » ويصبّ عليها سخافاته عن الأصنام التي تطير ولا أدري ماذا ! ثم هي تدعه يفعل ! ولكن ما الذي بينهما ؟ أن ترثي له من صميم قلبها ، وان تضعه في بيت للراحة تستطيع ان تراه فيه كل يوم ، اني أفهم هذا ... ولكني لم أكن لأفكر قط .. ـ كنت أعتبرها كالأرملة ..

واستطرد بلهجة جادّة :

ـ اسمعي يا جانيت ! سأحدثك بصراحة : اذا كانت لها حواسّ ، فاني أفضّل ان تتخذ لها عشيقاً !

فصاحت السيدة داربيدا ؛

ــ اسكت يا شارل !

وتناول السيد داربيدا بهيئة متعبة العصا والقبعة اللتين كان قد وضعهما وهو داخلٌ على احدى الطاولات . وانتهى الى القول :

ــ لم يبق لي أملٌ كبير ، بعد كل الذي حدثتني به . ومع ذلك ، فسوف أكلمهما لأن ذلك واجبي .

وكانت السيدة داربيدا تستعجل في نفسها ذهابه ، فقالت مشجعة اياه :

ــ أعتقد ان لدى ايف ، بالرغم من كل شيء ، عناداً أكثر من .. اي شيء آخر . انها تعلم ان لا رجاء بشفائه ، ولكنها تعاند ، وهي لا تريد ان تحصل على تكذيب لذلك .

وكان السيد داربيدا يداعب لحيته حالماً :

ــ عناد ؟ ربما كان ذلك . فاذا كنتِ على حق ، فسينتهي الأمر بها الى الضجر . انه ليس دمثاً كل يوم ، ثم إنه قليل الحديث . فأنا حين اقول له مساء الخير يمدّ لي يداً رخوة ولا يتكلم . وأحسب انه ، حين يكونان وحيدين ، يعود الى أفكاره الثابتة : فهي تقول لي انه يحدث له ان يصرخ كالذبيح لأنه يقع في الهلوسات . أصنام . أصنام تخيفه لأنها تدمدم . وهو يقول انها تطير حوله وانها تنظر اليه بعيون بيضاء .

وكان يرتدي قفازيه ؛ وقد أضاف :

ــ لا اقول انها لن تتعب او تضجر ، ولكن ما يدرينا انها لن تُجنّ قبل ذلك ؟ اودّ لو انها تخرج قليلاً ، وان ترى الناس : فلا بد ان تلتقي شاباً لطيفاً ــ خذي مثلاً ، شخصاً مثل سكرودر المهندس عند سامبلون ، شخصاً له مستقبل ، فسوف تراه قليلاً هنا وقليلاً هناك ، وستعتاد رويداً رويداً على التفكير بأن تصنع حياتها من جديد .

ولم تجب السيدة داربيدا خشية ان تطلق للحديث العنان مرة اخرى . وانحنى زوجها عليها يقول :

ـ هيا ، ينبغي ان أذهب .
فقالت السيدة داربيدا وهي تُدني منه جبينها :
ـ الى اللقاء ، قبّلها جيداً وقل لها من قبلي إنها حبيبة مسكينة .
واسترخت السيدة داربيدا في مقعدها ، حين خرج زوجها ، وأغمضت عينيها ، مرهقة ، وفكرت في عتاب : « اية حيوية ! » وما ان استردّت بعض قواها حتى مدّت يدها فتناولت من الصحن قطعة من الحلقوم ، تلمّستها تلمّساً من غير ان تفتح عينيها .

كانت ايف تسكن مع زوجها في الطابق الخامس من بناية قديمة ، في شارع باك . وقد ارتقى السيد داربيدا المئة والاثنتي عشرة درجة من السلم في خفّة . وحين ضغط على زر الجرس ، لم يكن حتى لاهثاً . وتذكر في رضى كلمة الآنسة دورموي : « انك لرائع يا شارل ، وانت في هذه السنّ » لم يكن يُحس انه اقوى ولا اوفر صحّة مما هو يوم الخميس ، لا سيما بعد هذا الارتقاء الناشط .

وكانت ايف هي التي أقبلت تفتح له : « صحيح . ليس لديها خادمة . فهاتيك الفتيات « لا يستطعن » ان يبقين عندها : انني اتصوّر نفسي مكانهنّ . » وعانقها مقبلاً : « مساء الخير ايتها الحبيبة المسكينة » .
فردّت ايف تحيته في بعض البرود. وقال لها السيد داربيدا وهو يلمس خدّها :
ـ انك ممتقعة قليلاً ، وانت لا تقومين بما يكفي من التمرين .
وساد صمت ، ثم سألت ايف :
ـ هل تكون صحة امي بخير ؟
ـ هكذا وهكذا . هل رأيتها يوم الثلاثاء ؟ إنها على ما هي عليه . لقد جاءت العمة لويز لرؤيتها أمس ، فكانت مسرورة بذلك . إنها تحب الزيارات ، ولكن ينبغي ألاّ تطول . وقد قدمت عمّتك لويز الى باريز مع الاولاد من أجل قصة الرهونات تلك . واحسب أني حدثتك عنها ، انها قصة غريبة .

وقد مرت بمكتبي تستشيرني ، فقلت لها ان ليس ثمة خيار بين موقفين : فيجب ان تبيع . والواقع انها وجدت شارياً : هو بروتونيل . هل تذكرين بروتونيل ؟ لقد انسحب الآن من الأعمال .

وتوقّف فجأة : كانت ايف لا تكاد تصغي اليه . وفكر في حزن انها لا تهتمّ بشيء بعد . «كذلك كان شأنها مع الكتب . كان ينبغي في الماضي ان تُنزع منها . أما الآن فقد كفّت حتى عن القراءة . »

– وكيف حال بيار ؟

قالت ايف : – جيدة . هل تريد ان تراه ؟

قال السيد داربيدا في جذل :

– بالتأكيد . سأقوم بزيارة قصيرة له .

كان ممتلئاً بالعطف على هذا الفتى المسكين ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يراه من غير اشمئزاز . « اني أنفر من الكائنات المنتنة » بالطبع ، لم تكن هي غلطة بيار : فقد كان له إرثٌ مثقل بشكل فظيع . وكان السيد داربيدا يتنهّد : « إن الاحتياطات تتخذ عبثاً ، فان هذه الأمور لا تُعرف الا بعد فوات الأوان . » أجل ، لم يكن بيار مسؤولاً . غير انه مع ذلك كان يحمل في نفسه هذه العاهة ابداً ؛ كانت تشكّل صميم شخصيته ؛ إنها لم تكن مثل السرطان أو السل اللذين يمكن التغاضي عنهما حين يُراد الحكم على إنسان كما هو في ذاته . فان ذلك الجمال العصبي وتلك الرهافة اللذين كانا يروقان لايف كثيراً ، حين كان يغازلها ، انما كانا أزهار جنون . « كان قد جُنّ حين تزوّجها ؛ غير ان ذلك لم يكن ليلحظ . » وفكر السيد داربيدا : « إن المرء ليتساءل أين تبدأ المسؤولية ، او بالاحرى اين تقف . لقد كان على اي حال يفرط في تحليل نفسه ، كان دائماً ملتفتاً الى ذاته . ولكن أيكون هذا سبب مرضه او نتيجته ؟ » كان يتبع ابنته عبر ممّر طويل مظلم ، فقال :

– إن هذه الشقة اكبر من ان تحتاجي اليها . فينبغي ان تنقلي منها .

فأجابت ايف :

— انك تقول لي هذا كل مرة يا بابا . ولكني سبق ان قلت لك إن بيار لا يريد ان يترك غرفته .

كانت ايف مدهشة : حتّى ان المرء ليتساءل هل كانت تدرك جيداً حالة زوجها . كان من الجنون بحيث ينبغي ان يُربط ، ومع ذلك فقد كانت تحترم قراراته وآراءه كما لو انه كان يملك جميع قواه العقلية .

واستطرد السيد داربيدا بلهجة لا تخلو من انزعاج :

— إن ما اقوله في ذلك هو لصالحك . يخيّل إليّ اني لو كنت امرأة لأخذني الخوف في هذه الغرف الرديئة الإضاءة . كنت أتمنّى لك شقة مشرقة كتلك التي بنيت في السنوات الأخيرة ، جهة « اوتوي » : ثلاث غرف صغيرة ذات تهوية جيدة . وقد خفضوا اجرة مساكنهم لأنهم لا يجدون مستأجرين ؛ فهذه فرصة مناسبة . »

وأدارت إيف على مهل مقبض الباب ، فدلفا الى الغرفة . وكاد السيد داربيدا يختنق من جراء رائحة بخور ثقيلة . كانت الاستار مسدلة ، وقد لمح في الظلام رقبة هزيلة فوق مسند أريكة : كان بيار يأكل ، مولياً ظهره .

قال السيد داربيدا وهو يرفع صوته :

— مساء الخير يا بيار . كيف الحال اليوم ؟

واقترب السيد داربيدا : كان المريض جالساً أمام طاولة صغيرة ، وكانت له هيئة غامضة . وأضاف السيد داربيدا وهو يرفع صوته :

— يبدو اننا أكلنا بيضاً مسلوقاً . وهو لذيذ طبعاً !

قال بيار بصوت ناعم :

— انني لست أصمّ .

فاغتاظ السيد داربيدا وادار عينيه نحو ايف ليُشهدها على ذلك . ولكن ايف بادلته نظرة قاسية وصمتت . وادرك السيد داربيدا انه كان قد جرحها . « فليكن . هذا لديّ سواء » كان من المستحيل ان يجد المرء اللهجة الحقيقية التي ينبغي ان يحدث بها هذا الفتى المسكين : فقد كان أصغر عقلاً من صبيّ

في الرابعة ، وقد كانت ايف تريد ان يُعامل كرجل . ولم يكن السيد داربيدا يستطيع الامتناع عن ترقّب اللحظة التي تزول فيها هذه الالوان من المراعاة المفرطة . كان المرضى يزعجونه دائماً بعض الإزعاج ، ولا سيما المجانين لأنهم يكونون على خطأ . فان بيار المسكين ، مثلاً ، كان مخطئاً على طول الخط ، ولم يكن ينبس بكلمة من غير ان يضلّ ، ومع ذلك فقد كان من العبث ان يطلب منه أي تواضع ، او حتى الاعتراف العابر بأخطائه .

ورفعت ايف قشر البيض وإناءه ، ثم وضعت أمام بيار صحناً وشوكة وسكيناً . فقال السيد داربيدا بلهجة مرحة :

ــ ما الذي سيأكله الآن ؟

ــ قطعة بيفتاك .

وكان بيار قد تناول الشوكة فأمسكها بأطراف أصابعه الصفراء . وحدجها بدقّة ثم ضحك ضحكة خفيفة ، وتمتم وهو يضعها :

ــ لن أفعلها هذه المرة . فقد تنبّهت مسبّقاً .

واقتربت ايف فنظرت الى الشوكة في اهتمام مهووس . قال بيار :

ــ أغات ، أعطيني شوكة اخرى .

فأطاعت ايف ، وأخذ بيار يأكل . وكانت قد أخذت الشوكة المشبوهة وشدّتها في يديها من غير ان تغادرها بعينيها : كان يبدو وكأنها تبذل جهداً عنيفاً . وفكر السيد داربيدا : « ما أعجب حركاتهما جميعاً وعلاقاتهما جميعاً ! »

كان منزعجاً . قال بيار :

ــ حذار . خذيها من وسط ظهرها خوفاً من الأسنان .

فتنهّدت ايف ووضعت الشوكة على فضلة الطعام . وأحس السيد داربيدا بالخردل يصعد الى أنفه . لم يكن يستحسن الاستجابة لجميع أهواء هـــذا المسكين ــ إن ذلك ضارّ ، حتى من وجهة نظر بيار . وقد سبق لفرانشو ان أكّد ذلك : « ينبغي ألاّ تشارك مريضاً هذيانه على الاطلاق . » فقد كان من الأفضل ألاّ يُعطى شوكة أخرى ، بل كان ينبغي اقناعه بالمحاكمة العقلية

الحادثة أن الشوكة الاولى كانت شبيهة بالاخريات .

واقترب السيد داربيدا من فضلة الطعام ، فتناول الشوكة ولامس أسنانها باصبع خفيفة ، ثم التفت الى بيار . ولكن هذا كان يقطع اللحم في هدوء ؛ وقد رفع نحو عمّه نظرة عذبة خالية من المعنى . وقال السيد داربيدا لإيف :

ــ أودّ ان اثرثر معك قليلاً .

فتبعته إيف بوداعة الى الصالون . ولاحظ داربيدا وهو يجلس على الأريكة انه كان مــا يزال يحتفظ بالشوكة في يده . فألقاهـــا في كزازة على إحـــدى الطاولات .

قال : ــ الجوّ هنا أفضل .

ــ انني لا أدخل هذه الغرفة قط .

ــ هل أستطيع التدخين ؟

فقالت ايف في استعجال :

ــ طبعاً ، يا بابا . هل تريد سيكاراً ؟

فآثر السيد داربيدا ان يلفّ سيكارة . وكان يفكر بلا ضجر في المناقشة التي سيبدأها . كان اذ يتحدث الى بيار يُحسّ نفسه مرتبكاً بعقله كما قد يرتبك عملاق بقوته اذ يلاعب صبياً . كانت جميع مزايا وضوحه وصفائه ودقته تنقلب عليه . « يجب ان اعترف بأن الأمر مشابه جداً ، مع عزيزتي جانيت . » صحيح ان السيدة داربيدا لم تكنْ مجنونة ، ولكن المرض كان قد .. أخمدها . اما ايف، فقد كانت على العكس متأثرة بأبيها ، كانت طبيعة مستقيمة ومنطقية ؛ وكان النقاش معها يصبح متعة . « من أجل هذا ، لا اريدهم ان يفسدوها لي . » ورفع السيد داربيدا عينيه ؛ كان يريد ان يرى ملامح ابنته الدقيقة الذكية . ولكنه خاب : إن هذا الوجه الذي كان في الماضي عاقلاً وشفافاً الى حدّ بعيد ، أصبح الآن معتكراً وكثيفاً . على ان ايف تظل ابداً جميلة جداً . وقد لاحظ السيد داربيدا انها كانت قد خضبت وجهها بعناية كبيرة ، بل بأبّهة تقريباً . كانت قد زرّقت جفنيها وأمرّت « الريميل »

على أهدابها . وقد عاد هذا المكياج الكامل العنيف بشعورٍ شاقٍ على أبيها ، فقال لها :

– إن هذا الخضاب قد جعل لونك أخضر . وانا أخشى أن تمرضي . وما أشدّ ما تتخضّبين الآن ! انت التي كنت شديدة التحفّظ .

فلم تجب ايف ، وتأمّل السيد داربيدا في ارتباك ذلك الوجه الفاقع المنهك ، تحت كتلة الشعر الأسود الثقيلة . وفكر بأنها تشبه ممثّلة . « بل انا اعرف من تشبه حقاً . إنها تشبه تلك المرأة ، تلك الرومانية التي مثلت « فيدر » بالفرنسية عند حائط « اورانج » . وكان آسفاً أنه قد سبق ان ادلى لها بهذه الملاحظة المزعجة : « لقد افلتت مني ! فالأفضل عدم إزعاجها من أجل شؤون صغيرة كهذه . »

قال وهو يبتسم :

– اعذريني ، انت تعرفين اني من أتباع الطبيعة . فانا لا أحب كثيراً جميع تلك الدهون التي يلصقها نساء اليوم بوجوههن . ولكني انا المخطىء ، إن على المرء ان يعيش عصره .

فبسمت له ايف في ودّ . وأشعل السيد داربيدا سيكارته وسحب منها عدة مجّات ، ثم بدأ يقول :

– سنثرثر قليلاً يا بنيّتي الصغيرة . هيا ، اجلسي واصغي إليّ بلطف ؛ يجب على الانسان ان يثق بأبيه العجوز .

قالت ايف : – بل افضل ان أبقى واقفة . ما الذي تريد ان تقوله لي ؟

قال السيد داربيدا في لهجة لا تخلو من جفاف :

– سأطرح عليك سؤالاً بسيطاً . الى اين سينتهي بك هذا كله ؟

فردّدت ايف مندهشة : – هذا كله ؟

– أجل ، كل شيء ، كل هذه الحياة التي صنعتها لنفسك . إسمعي ، يجب الا تظنّي اني لا أفهمك (وكانت فكرة مشرقة قد جاءته) ولكن ما تريدين ان تفعليه يفوق القوى البشرية . انك تريدين ان تعيشي بالخيال وحده ،

أليس كذلك ؟ انك لا تريدين الإقرار بأنه مريض ؟ إنك لا تريدين ان تري بيار اليوم ، أليس كذلك ؟ إنك لا ترين الا بيار الأمس .

واستطرد السيد داربيدا يقول :

ـ إن هذا يا عزيزتي الصغيرة ، يا ابنتي الصغيرة ، رهان يستحيل ان تستمري به. اسمعي ، سأقص عليك قصة لعلك لا تعرفينها : حينا كنا نسكن في « سابل دولون » ، وكنتِ أنت في الثالثة ، تعرّفت أمّك على امرأة صبيّة جذابة كان لها طفل رائع . وكنت تلعبين على الشاطىء مع هذا الطفل ، وكنتما طويلين كثلاث تفاحات ، وكنت خطيبته . وفيما بعد ، بعد ان أقمنا في باريس ، ارادت امك ان ترى تلك المرأة الصبية ، فأخبروها ان مصيبة فظيعة قد نزلت بها : لقد دهست سيارة ابنها الجميل وقطّعته . وقيل لامك : « تستطيعين ان تريها ، ولكن لا تحدثيها عن موت صغيرها ، انها « لا تريد » ان تصدق انه مات . » وزارتها امك فوجدت مخلوقة نصف معتوهة : كانت تعيش كما لو ان طفلها ما يزال حياً ؛ كانت تحدّثه وتضع صحنه على المائدة . أجل ، لقد عاشت في حالة من التوتر العصبي وجب معها ، بعد ستة أشهر ، ان تُساق قسراً الى بيت للراحة مكثت فيه ثلاثة أعوام .

وأضاف السيد داربيدا وهو يهزّ رأسه :

ـ أجل يا صغيرتي . إن هذه أشياء مستحيلة . كان الأجدى ان تعترف بالحقيقة في شجاعة . إذن لتألمت مرة واحدة ، ثم أتى الزمن فمسح على جبينها برفق . صدقيني ان ليس ثمة أفضل من النظر الى الامور مواجهة .

قالت ايف في جهد :

ـ انت مخطىء . فأنا أعلم ان بيار هو ...

ولم تسعفها الكلمة . كانت واقفة باستقامة ، وهي واضعة يديها على مسند أريكة : وكان في أسفل وجهها شيء جافّ وقبيح . وسأل السيد داربيدا بدهشة :

ـ نعم ، وإذن ؟

– إذن ماذا ؟

– انك ...؟

قالت ايف بسرعة وبلهجة ضجرة :

– احبّه كما هو .

قال السيد داربيدا في قوة :

– هذا غير صحيح ، هذا غير صحيح : انك لا تحبينه ، لا تستطيعين ان تحبيه . إن المرء لا يستطيع ان يكنّ مثل هذا الإحساس إلاّ لكائن طبيعي سليم . انما انت تكنّين الشفقة لبيار ، ولست اشكّ في ذلك ، ثم إنك بلا شك تحفظين ذكرى ثلاثة أعوام من السعادة انت مدينة له بها . ولكن لا تقولي انك تحبينه . فلن أصدّقك .

فظلّت ايف صامتة وهي تحدّق بالسجّادة في هيئة غياب . وقال السيد داربيدا ببرودة :

– تستطيعين ان تجيبيني . ولا تحسبي ان هذا الحديث اقل مشقة لي منه لك .

– ولكنك لا تصدّقني .

فصاح مغتاظاً : – اذا كنت تحبينه حقاً ، فانها مصيبة كبيرة لك ولي ولامك المسكينة ، لأني سأقول لك شيئاً كنت أفضّل ان أخفيه عليك : إن بيار سيسقط قبل مضيّ ثلاثة أعوام في الجنون الكامل ، وسيصبح كالحيوان .

ونظر الى ابنته بعينين قاسيتين : كان يأخذ عليها أنها اضطرته بعنادها الى ان يصارحها بهذه الحقيقة الشاقة .

ولم تبد ايف حراكاً ، بل هي لم ترفع عينيها ، وانما اكتفت بالقول :

– كنت أعرف ذلك .

فسألها مشدوهاً : – من أخبرك ذلك ؟

– فرانشو . أعرفه منذ ستة أعوام .

قال السيد داربيدا في مرارة :

ـ ولكني أوصيته ان يراعيك في ذلك . وعلى كل حال ربما كان هذا أفضل . ولكن ينبغي أن تفهمي في هذه الحالة انه لن يُغفر لك ان تحتفظي ببيار في البيت . إن المقاومة التي أبديتها مرصودة للإخفاق ، فمرضه لا يغفر . لو أن هناك ما يُفعل، لو كان بالامكان إنقاذه بمختلف الوان العناية لما كان لديّ ما أعترض به . ولكن انظري قليلاً : لقد كنت جميلة ، وذكية ومرحة ، وها انت تهدمين نفسك بارادتك وبلا جدوى . حسناً ، لقد كنت تثيرين الإعجاب ، ولكن حسبُك هذا ، لقد قمت بواجبك كلّه ، بل بأكثر من واجبك ؛ فالإلحاح في ذلك سيكون الآن لاأخلاقياً . إن للمرء واجبات نحو نفسه يا ابنتي . ثم انك لا تفكرين بنا .

واستطرد يقول وهو يطرق كلماته طرقاً :

ـ يجب ان ترسلي بيار الى مستشفى فرانشو ، ويجب ان تتركي تلك الشقة التي لم تري فيها الا المصائب وان ترجعي الى قربنا . فاذا كانت لديك رغبة في ان تخدمي أحداً وان تواسي آلام الآخرين، فان أمامك أمك . إن المسكينة تُعنى بها الممرضات ، وستكون بحاجة الى ان تُحاط بالرعاية ، « وهي » تستطيع ان تقدّر ما ستفعلينه من أجلها وستكنّ لك الاعتراف بالجميل .

وساد صمت طويل . وسمع السيد داربيدا غناء بيار في الغرفة المجاورة ، وكان اقرب الى ان يكون زعيقاً ثاقباً . ورفع السيد داربيدا عينيه الى ابنته :

ـ ما هو جوابك : لا ؟

قالت بهدوء : ـ سيبقى بيار معي . انني متفاهمة معه تماماً .

ـ شريطة القيام بالحماقات طوال النهار .

فابتسمت ايف وقذفت أباها بنظرة ساخرة غريبة ، تكاد تكون جذلة .

وفكر السيد داربيدا غاضباً : « هذا صحيح ، إنهما لا يفعلان غير ذلك . انهما ينامان معاً . »

وقال وهو ينهض :

ـ انت مجنونة كليّة .

فبسمت ايف بحزن وتمتمت ، كأنما تحدث نفسها :

— ليس بالقدر الكافي .

— ليس بالقدر الكافي ؟ لا أستطيع ان اقول لك الا شيئاً واحداً يا بنيّتي : انك تخيفينني .

وقبّلها على عجل ثم خرج . وفكر وهو يهبط السلّم : « ينبغي ان نرسل لها رجلين قويّين يقتادان قسراً هذه النفاية المسكينة ويسمّرانه تحت « الدوش » من غير ان يسألاه رأيه . »

كان اليوم يوماً خريفياً جميلاً ، هادئاً ، لا أسرار فيه ؛ وكانت الشمس تذهّب وجوه المارّة . وقد فوجيء السيد داربيدا ببساطة هذه الوجوه ؛ كان فيها المدبوغ وفيها الأملس ، ولكنها جميعاً كانت تعكس سعادات وهموماً مألوفة لديه . وقال في نفسه وهو يسلك جادة سان جرمان : « أنا أعرف جيداً ما آخذه على إيف . انني آخذ عليها انها تعيش خارج البشري . إن بيار ليس بعد كائناً بشرياً : فان ما تحيطه به من عناية وحبّ ، انما تحرم منه قليلاً جميع هؤلاء الأشخاص . ليس لنا الحق بأن نمنع العطاء عن البشر . »

وكان يرمق المارّة في ودّ ؛ كان يحب نظراتهم الجادّة الصافية . وفي هذه الشوارع التي تغمرها الشمس ، كان المرء يُحسّ نفسه بين الناس في أمان ، كما لو انه وسط اسرة كبيرة .

وكانت سيدة حاسرة قد وقفت امام بضاعة معروضة في الهواء ، وهي تمسك طفلة بيدها ، وسألتها الطفلة وهي تشير الى جهاز راديو :

— ما هذا ؟

قالت امها : — لا تمسّي شيئاً ؛ انه جهاز . يعمل موسيقى .

وبقيتا لحظة من غير ان تتكلما ، مأخوذتين . وانحنى السيد داربيدا ، عطوفاً ، نحو الطفلة ، وابتسم لها .

٢

« لقد ذهب » . وكان الباب قد انغلق في صفقة خشنة ؛ وكانت ايف وحيدة في الصالون : « اودّ لو انه يموت » .

وتشنجت أصابعها على مسند الأريكة ، وهي تتذكر عيني أبيها . كان السيد داربيدا قد انحنى فوق بيار انحناءة صاحب اختصاص ؛ وكان قد قال له « إن هذا لذيذ ! » كمن يُحسن التحدث الى المرضى ؛ وكان قد نظر اليه ، فارتسم وجه بيار في أعماق عينيه الكبيرتين الحاذقتين . « انني اكرهه حين ينظر اليه ، حين افكر بأنه « يراه » .

وانزلقت يدا ايف على طول الأريكة ، والتفتت نحو النافذة . كانت مبهورة ، بعد ان امتلأت القاعة بالنور الذي غمر كل شيء : فكان على السجّادة دوائرّ صفراء ، وفي الهواء نثاراً من الغبار المُعمي . وكانت ايف قد فقدت عادة هذا النور النشيط الوقح الذي كان يتسلّل الى كل مكان ، وينظّف الزوايا ، ويدلك الأثاث ويجعله يلتمع كأنه ربة منزل ماهرة . على انها تقدمت حتى النافذة ورفعت الستار الحريري الذي كان يتدلى على الزجاج . وفي تلك اللحظة ، كان السيد داربيدا يخرج من البناية ، فلمحت ايف فجأة كتفيه العريضتين . ورفع رأسه فنظر الى السماء وهو يطرف بعينيه ، ثم ابتعد في خطوات كبيرة ، كأنه شاب . وفكرت ايف : « انه يجهد نفسه . وستأخذه عما قليل شكّة خاصرته . » وكفّت عن ان تكرهه : شيء قليلٌ جداً كان مقيماً في ذلك الرأس ، ليس اكثر من همّ ضئيل بان يبدو شاباً . بيد ان الغضب عاودها حين رأته ينعطف عند زاوية جادة سان جرمان ويختفي . « انه يفكر في بيار » . كانت بضعةٌ من حياتهما قد أفلتت من الغرفة الموصدة وأخذت تتسكّع في الشوارع ، وتحت الشمس ، وبين الناس . « أليس من الممكن اذن ان نُنسى ابداً ؟ »

كان شارع باك شبه خال . وكانت سيدة عجوز تعبر الطريق بخطى صغيرة ؛ ومرّت ثلاث فتيات وهنّ يضحكن . ثم رجال ، رجال أقوياء وجادّون

يحملون محافظ ويتحدثون فيما بينهم . « الناس الطبيعيون » ، هكذا فكرت ايف ، وقد أدهشها ان تجد في نفسها مثل هذه القدرة على الحقد . وعدّتْ امرأة جميلة سمينة امام رجل أنيق عدواً متمهلاً . فأحاطها بذراعيه وقبّلها في فمها . وضحكت ايف ضحكة قاسية ثم أرخت الستار .

كان بيار قد كفّ عن الغناء ، ولكن امرأة الطابق الثالث كانت قد جلست إلى البيانو ؛ وكانت تعزف « دراسة » لشوبان . وأحسّت ايف أنها تستعيد بعض هدوئها ، فخطت خطوة نحو غرفة بيار ، ولكنها ما لبثت ان توقفت واستندت الى الجدار في شيء من الضيق : ككل مرة تغادر فيها الغرفة ، أخذها ذلك الجزع الذي يعتريها إذ تفكر بأن عليها ان تعود اليها . ومع ذلك ، فقد كانت تعرف جيداً انها لن تستطيع ان تعيش في مكان آخر : كانت تحب الغرفة . وأجالت نظرها ، في فضول بارد ، كأنها تودّ ان تكسب بعض الوقت ، في أرجاء تلك القاعة التي لا ظلال فيها ولا رائحة والتي كانت تنتظر فيها ان تستعيد طمأنينتها . « لكأنه صالون طبيب أسنان » كانت الأرائك الحريرية الوردية والديوان والطاولات الصغيرة بسيطة محتشمة ، أبوية بعض الشيء ؛ أصدقاء طيبون للإنسان . وتصوّرت ايف ان رجالاً رصينين يرتدون أقمشة فاتحة ، شبيهين كل الشبه بأولئك الذين رأتهم من النافذة ، يدخلون الصالون وهم يتابعون محادثة مبدوءة . ولم يقفوا لكي يتعرّفوا لحظةً على الأمكنة ، بل كانوا يتقدمون بخطوة ثابتة نحو وسط القاعة ؛ وكان أحدهم يترك يده خلفه كأنها الثلم تلامس الوسائد والحاجات على الطاولات من غير ان تنتفض لهذه الملامسات. وحين كان هؤلاء الرجال الواثقون يُلمّون بقطعة من الأثاث في طريقهم ، لم يكونوا ينعطفون ليتجنّبوها ، بل كانوا يغيّرون مكانها في هدوء . وجلسوا أخيراً ، وهم ما يزالون غارقين في حديثهم ، من غير ان يلقوا حتى نظرة واحدة فيما خلفهم . وفكرت ايف : « صالون لرجال طبيعيين . » وكانت تحدّق في قبضة الباب الموصد ، فيما الضيق يضغط على حنجرتها : « يجب أن أذهب اليه . انني لا اتركه قط

مثل هذه المدة الطويلة . » يجب فتح هذا الباب : ستقف إيف بعد ذلك على العتبة ، محاولةً ان تعوّد عينيها على العتمة ، وستدفعها الغرفة بكل قواها . ينبغي أن تنتصر ايف على هذه المقاومة ، وان تنفذ حتّى قلب القاعة . وأخذتها فجأةً رغبةٌ عنيفة بأن ترى بيار ؛ كان بودّها ان تسخر معه من السيد داربيدا . ولكن بيار لم يكن بحاجة اليها ؛ ولم تكن ايف تستطيع ان تتنبأ بالاستقبال الذي كان يحفظه لها . وفكّرت فجأة ، في شيء من الكبرياء ، انها لم يبق لها بعدُ اي مكان . « إن الطبيعيين لا يزالون يظنّون انني منهم . ولكني لن أستطيع ان أبقى ساعة بين ظهرانيهم . انني بحاجة لأن أعيش هناك ، في الجانب الآخر من هذا الجدار . ولكنهم هناك لا يريدونني . »

كان تغيّرٌ عميق قد تمّ فيما حولها .. كان النور قد شاخ وأدركه المشيب . كان قد ثَقُل ، كماء آنية للزهور لم يُغيّر منذ الأمس . وكانت ايف تجد في هذا النور الذي شاخ على الأشياء كآبة كانت قد نسيتها منذ وقت طويل : كآبة أصيل خريفي يلفظ أنفاسه . وكانت تنظر فيما حولها متّرددة ، شبه خجلة : ما أبعد هذا كله ! لم يكن في الغرفة نهارٌ ولا ليل ، ولا فصل ولا كآبة . وتذكّرت بغموض فصولاً خريفية قديمة جداً ، يرجع عهدها الى حداثتها ، ثم تصلّبت فجأة : كانت تخاف الذكريات .

وسمعت صوت بيار :

ــ أغات ، اين انت ؟

فصاحت : ــ انني قادمة .

وفتحت الباب ، ودلفت إلى الغرفة .

أفغمت رائحة البخور منخريها وفمها بينما كانت تحملق بعينيها وتمد يديها الى امام ــ ولم يكن العطر والعتمة يشكّلان بعدُ في نظرها ، منذ وقت طويل ، الا عنصراً واحداً ، حرّيفاً ومخملياً ، بسيطاً وأليفاً كالماء والهواء والنار ــ واقتربت بحذر نحو لطخة ممتقعة كانت تبدو وكأنها عائمة في الضباب . كان

هذا وجه بيار، وقد ذاب ثوبه (فهو منذ أصبح مريضاً يرتدي السواد) في الظلام. وكان بيار قد قلب رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه. كان جميلاً. ونظرت ايف الى أهدابه الطويلة المثنيّة، ثم جلست الى قربه على الكرسي الواطئة. وفكرت: «لكأنما هو يتألم». واعتادت عيناها رويداً رويداً على العتمة. فانبثق المكتب اولاً، ثم السرير، ثم حاجات بيار الشخصية، المقص واناء الصمغ، والكتب، والحشائش التي كانت تغطّي السجادة قرب الأريكة.

— اغات؟

كان بيار قد فتح عينيه وأخذ ينظر اليها وهو يبتسم. وقال:

— اتدرين... الشوكة؟ لقد فعلت ذلك لأخيف صاحبنا. فهي لم تكن تشكو شيئاً «تقريباً».

فتلاشت مخاوف ايف وضحكت ضحكة خفيفة، وقالت.

— لقد نجحت نجاحاً كبيراً، فقد اثرت جنونه تماماً.

فبسم بيار:

— هل رأيته؟ لقد قلّبها عدة مرات وكان يمسكها بكلتا يديه. الحقيقة انهم لا يعرفون ان يأخذوا الأشياء. انهم يقبضون عليها.

قالت ايف: — هذا صحيح.

وضرب بيار راحة يده اليسرى بسبابة يده اليمنى ضرباً خفيفاً:

— إنهم يأخذون الأشياء بهذه. هم يقرّبون أصابعهم، وحين يقبضون على الشيء، يطبقون راحتهم فوقه ليخنقوه.

كان يتكلم بصوت سريع ومن أطراف شفتيه؛ كان يبدو متبرماً؛ وقال أخـــيراً:

— انني أتساءل عما يريدون. لقد سبق لهذا الشخص أن جاء. فلماذا أرسلوه لي؟ اذا شاءوا ان يعرفوا ما الذي أفعله، فليس عليهم الا ان يقرأوه على الشاشة، بل انهم ليسوا بحاجة إلى ان يتحركوا من بيوتهم. انهم يرتكبون الأخطاء. صحيح انهم يملكون القدرة، ولكنهم يرتكبون الأخطاء. اما

انا فلا ارتكب أيّ خطأ ، وهذا حظّي .
وأضاف يقول : « هوفكا ، هوفكا . »
وكان يحرك يديه الطويلتين امام جبينه :
ــ القحبة ! هوفكا بافكا سوفكا . هل تريد المزيد من ذلك ؟
فسألت ايف : ــ أهو الجرس ؟
ــ نعم . لقد ذهب .
واستطرد في قسوة :
ــ إن ذلك الشخص رجل مأمور . انت تعرفينه . لقد رافقته الى الصالون .
فلم تجب ايف . وسأل بيار :
ــ ما الذي كان يريده ؟ لا بدّ انه أخبرك بذلك .
فترددت لحظة ثم أجابت بقسوة :
ــ كان يريد ان يُحجر عليك .
كان الحذر يبدو على بيار حين كانت الحقيقة تُقال له بهدوء ؛ فقد كان ينبغي ان تُلقى عليه بعنف لتشريد الظنون وشلّها . وقد كانت ايف تفضّل ان تكون معه شرسة على ان تكذب عليه : فاذ كانت تكذب عليه ويبدو انه يصدقها ، لم يكن يسعها ان تكبت إحساساً خفيفاً بالتفوق ، مما كان يعود عليها بشعور الاشمئزاز من نفسها .
وردّد بيار في سخرية :
ــ يحجر عليّ ! إنهم يضلّون . ما عساها ان تفعل لي ، الجدران ؟ ربما كانوا يعتقدون أنّ هذا سيوقفني . انني لأتساءل أحياناً عما اذا لم يكن هناك عصابتان . الحقيقية هي عصابة الزنجي . ثم عصابة المخرّبين التي تسعى الى حشر أنفها هنا والتي ترتكب حماقة فوق حماقة .
وجعل يُقفز يده على ذراع الأريكة ، ثم تأمّلها بهيئة فرحة :
ــ الجدران ؟ إن من الممكن خرقها ...
والتفت نحو ايف في فضول وسألها :

ـ انه لن يُحجر عليك .
فهز كتفيه :
ـ ما كان ينبغي ان تقولي ذلك . لقد ارتكبت انت ايضاً غلطة ، الا ان تكوني قد تعمّدت هذا . يجب ان تتركيهم يكشفون اوراقهم .
وصمت . وخفضت ايف رأسها في حزن : « انهم يقبضون عليها ! » بأية لهجة احتقار قال ذلك ـ وكم كان ذلك صحيحاً . « أتراني انا ايضاً أقبض على الأشياء قبضاً ؟ عبثاً ما اراقب نفسي ، فانا أحسب ان معظم حركاتي تزعجه . ولكنه لا يتحدث عن ذلك . » وأحسّت نفسها فجأة مسكينة بائسة ، شأنها يوم كانت في الرابعة عشرة وكانت السيدة داربيدا الخفيفة الناشطة تقول لها : « إن من يراك يعتقد أنك لا تعرفين ما تصنعين بيديك . » لم تكن تجرؤ على ان تقوم بحركة ، وفي تلك اللحظة بالذات أخذتها رغبةٌ لا تُقاوم بأن تغيّر جلستها ، فردّت قدميها على مهل تحت كرسيّها ملامسةً السجادة بلطف . وكانت تنظر الى المصباح على الطاولة ـ المصباح الذي كان بيار قد دهن قاعدته باللون الأسود ـ وطاولة الشطرنج . ولم يكن بيار قد ترك على الرقعة إلاّ البيادق السود . وكان ينهض أحياناً فيتقدم حتى الطاولة ويأخذ البيادق واحداً واحداً في يديه . وكان يتحدث اليها ويناديها « صواريخ » فكانت تبدو وكأنها تنتفض بحياة صمّاء بين أصابعه . وحين كان يضعها من جديد ، كانت ايف تذهب فتلمسها بدورها (وكان يأخذها شعور بأنها تثير الضحك بعض الشيء) : فاذا هي تعود قطعاً صغيرة من الخشب الميت ، ولكن كان يبقى عليها شيء ما مبهم وغير قابل للالتقاط ، شيء ما كالحاسّة . وفكّرت : « انها اشياؤه ، فليس لي في الغرفة شيء بعدُ على الإطلاق . » كانت قد ملكت في الماضي بعض الأثاث : المرآة وطاولة الزينة المغطاة بصفائح معدنية ، وكانت قد ورثتها عن جدّتها وكان بيار يسمّيها مازحاً طاولة « لك » . كان بيار قد جلبها معه : فلبيار وحده كانت الأشياء تُري وجهها الحقيقي . وقد كان بوسع ايف ان تنظر اليها ساعات : فكانت تبذل عناداً سيئاً لا يهن من أجل تخييب

ظنّها ، ومن أجل اعطائها مظهرها وحده ـ كما هو الشأن مع الدكتور فرانشو والسيد داربيدا . وقالت في ضيق : « غير انني مع ذلك ، لا أراها بعدُ كما يراها أبي تماماً . ليس ممكناً أن أراها تماماً مثله . »

وحرّكت ركبتيها قليلاً : كانت ساقاها منمّلتين . وكان جسمها متصلباً متوتراً ، وكان يؤلمها ؛ كانت تشعر به حيّاً اكثر مما ينبغي ، وقحاً : « اودّ لو اكون غير مرئية وان أبقى هنا ؛ انني زائدة على اللزوم في الغرفة . » وأدارت رأسها قليلاً ونظرت الى الجدار فوق بيار ، فقرأت عليه تهديدات مكتوبة . كانت ايف تعرف ذلك ، ولكنها لم تكن تستطيع قراءتها . وكانت تنظر غالباً الى الورود الضخمة الحمر المرسومة على ورقة الجدار ، حتى تأخذ في الرقص تحت ناظريها . كانت الورود تشتعل في العتمة . وكان التهديد مرسوماً ، غالب الأحيان ، قرب السقف ، فوق السرير الى الجهة اليسرى : ولكنه كان يتنقّل احياناً . « يجب ان أنهض . انني لا أستطيع ـ لا أستطيع ان أبقى جالسةً مدةً أطول . » وكان على الجدار كذلك اسطوانات بيض تشبه قطعاً من البصل . وقد استدارت الاسطوانات على نفسها ، فأخذت يدا ايف ترتجفان : « إن هناك لحظات أصبح فيها مجنونة . » وفكرت في مرارة : « ولكن لا ، انني « لا أستطيع » ان أصبح مجنونة . كل ما هناك ان أعصابي تثور . »

وفجأة ، أحسّت بيد بيار على يدها . وقال بيار في رقة :

ـ أغات .

كان يبسم لها ، ولكنه كان يمسك يدها بطرف أصابعه في نوعٍ من النفور ، كما لو انه قد أمسك بعقرب من ظهره لكي يتفادى أسنانه . وقال :

ـ أغات . كم أودّ ان أثق بك .

فأغمضت ايف عينيها وارتفع صدرها : « يجب ألاّ اجيب بشيء ، وإلاّ فسيفقد ثقته ويمتنع عن الكلام . »

وكان بيار قد ترك يدها ، وقال لها :

– احبّك كثيراً يا أغات ، ولكني لا أستطيع ان أفهمك . لماذا تبقين طوال الوقت في الغرفة ؟

فلم تجب ايف .

– قولي لي لماذا ؟

فقالت في جفاء :

– تعرف جيداً اني أحبّك .

قال بيار : – انني لا أصدقك . لماذا تراك تحبينني ؟ لا بدّ ان أثير لديك الإشمئزاز : انني مسكون .

وابتسم ، ولكنه اتخذ فجأة هيئة الجدّ وقال :

– إن بيني وبينك جداراً . انني أراك وأحدثك ، ولكنك قائمة في الجهة الاخرى . ما الذي يحول دون ان يحبّ أحدنا الآخر ؟ يخيّل إليّ ان الأمر كان أسهل في الماضي . في هامبورغ .

قالت ايف بحزن :

– نعم .

هامبورغ دائماً . ابداً لا يتحدث عن ماضيهما الحقيقي . لم يسبق لإيف ولا له ان كانا في هامبورغ .

– كنا نتنزه بمحـــاذاة القنوات . كان هناك قارب ، أتذكرين ؟ وكان القارب أسود ، وكان على الجسر هنالك كلب .

كان يختلق بالتدريج ، وكان الزيف في هيئته .

– كنت امسك بيدك ، وكانت لك بشرة اخرى . كنت اصدق كل مـــا كنت تقولينه لي .

ثم صرخ : « اسكتي ! »

وأصغى لحظة ، ثم قال بصوت مكتئب :

– انها على وشك ان تأتي .

فانتفضت ايف :

– انها على وشك ان تأتي ؟ لقد كنت أظنّ انها لن تأتي بعدُ أبداً .

منذ ثلاثة أيام ، كان بيار أهدأ منه الآن ؛ لم تأت التماثيل . وكان بيار يخاف التماثيل خوفاً فظيعاً ، بالرغم من انه لا يعترف بها ابداً . اما ايف ، فلم تكن تخافها : غير انها حين كانت تأخذ في الطيران في الغرفة ، وهي تطنّ ، كانت تخاف من بيار .

قال بيار : – أعطيني التركيبة .

فنهضت ايف وأخذت التركيبة : كانت عبارة عن مجموعة من قطع كرتون ألصقها بيار وكان يستعملها ليطرد التماثيل . وكانت التركيبة تشبه العنكبوت وكان بيار قد كتب على احدى قطع الكرتون : « السلطة على الفخ » وعلى قطعة أخرى « أسود » . وقد رسم على ثالثة رأساً ضاحكاً مع عينين مجعدتين : صورة فولتير . وتناول بيار التركيبة وتأمّلها بهيئة كئيبة ثم قال :

– انها لا يمكن ان تفيدني بعد .

– لماذا ؟

– لقد قلبوها .

– اصنع تركيبة اخرى .

فقال من بين أسنانه :

– انك تتمنّين ذلك كثيراً !

كانت ايف مغتاظة من بيار . « انه يعرف دائماً موعد مجيئها ؛ فكيف يتم له ذلك ؟ إنه لا يخطىء أبداً . »

كانت التركيبة تتدلى من أصابع بيار بحالة تدعو الى الرثاء : « إنه يجد دائماً أسباباً صالحة لعدم استعمالها . حين جاءت يوم الأحد ، كان يدّعي انه قد شتّتها ، ولكني كنت اراه خلف دلو الصمغ ، ولم يكن يستطيع ألاّ براها . واني لأتساءل عما اذا لم يكن « هو » الذي يجتذبها . » لم يكن المرء يستطيع ان يعرف قط اذا كان صادقاً كل الصدق . كانت ايف تشعر ، في بعض اللحظات ، بأن بيار كان مغموراً ، رغماً عنه ، بفيض آسن من الأفكار

والرؤى . غير ان بيار كان يبدو ، في لحظات أخرى ، وكأنه يخترع ويختلق . « انه يتألم . ولكن الى اي حدّ « يؤمن » بالتماثيل وبالزنجي ؟ انا أعرف على اي حال ان التماثيل لا يراها ، وانما يسمعها فحسب ، وحين تمرّ ، يدير رأسه ؛ غير انه يقول انه يراها ؛ وهو يصفها . » وتذكرت وجه الدكتور فرانشو المحمرّ : « ولكن جميع المعتوهين ، يا سيدتي العزيزة ، كذّابون ؛ وانت تضيعين وقتك اذا شئت ان تميّزي ما يشعرون به حقاً مما يدّعون إنهم يشعرون به . » وانتفضت : « ما شأن فرانشو بهذا ؟ انني لن ابدأ في التفكير على غراره . »

كان بيار قد نهض وذهب يرمي التركيبة في سلة الأوراق . وتمتمت : « اودّ ان افكر كما تفكر « انت » . وكان يمشي بخطى صغيرة ، على رؤوس قدميه ، فيما هو يشدّ مرفقيه على خاصرتيه ، ليشغل أقلّ حيّز ممكن . وعاد يجلس ونظر الى ايف نظرة مغلقة ثم قال :

– يجب ان ندهن الجدران بقشرة سوداء . فليس في هذه الغرفة قدرٌ كافٍ من السواد .

وكان قد تراكم في الأريكة . ونظرت ايف بحزن الى الجسم النحيل ، المستعدّ دائماً للانسحاب والانطواء : كان الذراعان والساقان والرأس تشبه اعضاء قابلة للانكماش . ودقت الساعة السادسة ؛ وكان البيانو قد صمت . وتنهدت إيف : لن تأتي التماثيل على الفور ، فينبغي انتظارها .

– أتريد ان أضيء النور ؟

كانت تفضّل ألا تنتظرها في الظلام . وقال بيار :

– افعلي ما تشائين .

فأضاءت ايف مصباح المكتب الصغير فغمر الغرفة ضباب أحمر . وكان بيار ينتظر هو ايضاً .

لم يكن يتكلم ، ولكن شفتيه كانتا تتحركان ، وكانتا تبدوان لطختين معتمتين في الضباب الأحمر . وكانت ايف تحب شفتي بيار . لقد كانتا في

السابق موثرتين وشهوانيتين ؛ ولكنهما كانتا قد فقدتا شهوانيتهما . كانتــا تنفرجان وهما ترتعشان قليلاً ثم تلتحمان بلا انقطاع ، وتنسحق احداهما على الاخرى لتنفصلا من جديد . كانتا وحدهما تعيشان ، في ذلك الوجه المغلق ؛ وكانتا تشبهان حيوانين خائفين . وكان بوسع بيار ان يدمدم طوال ساعات على هذا النحو من غير ان يخرج صوتٌ من فمه ، وكانت ايف تستسلم غالبا لسحر هذه الحركة الصغيرة العنيدة . « انني احبّ فمه » كان قد انقطع تماما عن تقبيلها ؛ كان يشمئز من التماسّ : لقد كان يُلمس في الليل ، وكانت ايدي رجال قاسية وجافة تقرصه في كل جسمه ؛ وكانت ايدي نساء ذات اظفار طويلة جداً ، تلامسه ملامسات قذرة . وغالباً ما كان يأوي الى فراشه بكامل ثيابه ، ولكن الايدي كانت تنسلّ تحت ثيابه وتشدّ قميصه . وقد حدث له مرة ان سمع صوتاً يضحك ثم حطّت شفتان غليظتان على شفتيه . ومنذ تلك الليلة ، كفّ عن تقبيل ايف نهائياً .

قال بيار : ــ أغات ، لا تنظري الى فمي .

فخفضت ايف عينيها . وتابع في قحة :

ــ انني لا أجهل ان بوسع المرء ان يتعلم القراءة على الشفتين .

وكانت يده ترتجف على ذراع الأريكة . وقد امتدّت السبّابة واقبلت تضرب ثلاث ضربات على الإبهام فتشنّجت الأصابع الاخرى : كان ذلك تعزيماً؛ وفكرت : « ستبدأ القضية » . وكانت بها رغبة الى أن تأخذ بيار بين ذراعيهــا .

وأخذ بيار يتكلم بصوت عالٍ جداً ، بلهجة فخمة :

ــ هل تذكرين سان بولي ؟

ينبغي الا تجيب . فربما كان ذلك شركاً . ثم قال بلهجة راضية :

ــ لقد عرفتك هناك . وقد خطفتك من بحار دانمركي . وكنا على وشك ان نقتتل ، ولكني دفعت مصروف الشراب ، فتركني آخذك . ولم يكن ذلك كله الا تمثيلاً .

« إنه يكذب ، لا يصدّق كلمة مما يقول . هو يعرف اني لا أُدعى آغات . انني اكرهه حين يكذب . » ولكنها رأت عينيه الثابتتين، فذاب غضبها . وفكرت : « انه لا يكذب عليّ ، ولكنه قد بلغ الحدّ الأخير . هو يشعر بأنها تقترب ؛ فهو يتكلم لكي يمتنع عن سماع نفسه . » وكان بيار يتشبث بكلتا يديه بذراعيْ الأريكة؛ كان وجهه ممتقعاً ؛ وكان يبتسم . وقال :

– إن هذه اللقاءات غريبة غالباً . ولكني لا اؤمن بالمصادفات . انني لا أسألك من الذي أرسلك ، فأنا أعلم انك لن تجيبي . ومهما يكن من أمر ، فقد كنت بارعة بما فيه الكفاية لتلطخيني .

كان يتكلم في مشقة ، بصوت ثاقب عجل . وكان ثمة كلمات لم يكن يستطيع النطق بها ، فكانت تخرج من فمه كمادة طرية شوهاء .

– لقد اقتدتني في أثناء الحفلة الى العاب سيارات سود ، ولكن كان خلف السيارات جيش من العيون الحمر التي كانت تلتمع بمجرد ان أدير ظهري . أعتقد أنك كنت تومئين لها ، فيما انت متعلّقة بذراعي ، ولكني لم اكن ارى شيئاً . كنت مستغرقاً اكثر مما ينبغي بحفلات التتويج الكبرى .

كان ينظر امامه باستقامة ، مفتوح العينين على سعتهما . وأمرّ يده على جبينه بسرعة ، في حركة ضيّقة ، من غير ان ينقطع عن الكلام : لم يكن يريد الانقطاع عن الكلام .

وأضاف بصوت حادّ :

– كانت تلك حفلة « تتويج الجمهورية » ، مشهد مؤثر في نوغه بسبب الحيوانات المختلفة التي كانت الجاليات ترسلها الى الحفلة . وكنت تخشين ان تضيعي بين القرود .

وردّد بصوت متكبّر ، وهو ينظر فيما حوله :

– قلت بين القرود . (وكان بوسعي ان اقول بين الزنوج !) إن الطروح التي تنسلّ تحت الطاولات وتحسب انها لا تُرى ، انما كان نظري يكشفها ويسمّرها على الفور .

وصاح قائلاً :

– إن الأمر هو السكوت . السكوت . الجميع في أمكنتهم وليستعدّوا لدخول التماثيل . إنه الأمر . ترالالا

كان يهدر ويضع يديه امام فمه بشكل القمع :

– ترالالالا ، ترالالالالا !

وصمت ، فعرفت ايف ان التماثيل دخلت الى الغرفة . وكان واقفا متصلباً ، ممتقعاً وعلى وجهه علامات الاحتقار . وتصلّبت ايف ايضاً وانتظر الاثنان في صمت . وكان ثمة من يسير في الممشى : انها ماري الخادمة ، ولا شك في انها قد وصلت لساعتها، وفكرت ايف : « يجب ان اعطيها مالاً لشراء الغاز » ثم أخذت التماثيل تطير ؛ وكانت تمرّ بين ايف وبيار .

وقال بيار « هان » ثم قبع في الأريكة وهو يطوي ساقيه تحته . وكان يصرف بصره ، ويقهقه بين الفينة والفينة ، ولكن قطرات من عرق كانت تتلألأ على جبينه . ولم تستطع ايف ان تتحمل رؤية ذلك الخد الممتقع ، وذلك الفم الذي كانت تكشيرة مرتجفة تشوّهه : فأغمضت عينيها . وأخذت خيوط مذهّبة تتراقص في جوف جفنيها الأحمر ؛ كانت تحسّ نفسها عجوزاً وثقيلة . وكان بيار غير بعيد عنها ، يتنفّس بصخب . « انها تطير ، انها تطنّ ؛ انها تنحني فوقه ... » وأحسّت بدغدغة خفيفة ، ومضايقة عند كتفها وعند خاصرتها اليمنى . ومال جسمها غريزياً نحو اليسار كأنما ليتفادى تماسّاً مزعجاً ، او كأنما ليدع لشيء ثقيل أخرق ان يمرّ . وفجأة فرقعت الأرض الخشبية فأخذتها رغبةٌ مجنونة في ان تفتح عينيها وان تنظر الى اليمين وهي تكنس الهواء بيدها .

ولكنها لم تفعل شيئاً ؛ بل احتفظت بعينيها مغمضتين وأخذتها فرحة حامزة جعلتها ترتعش ؛ وفكرت : « انا ايضاً خائفة ». كانت كل حياتها قد التجأت الى جنبها الأيمن . ومالت نحو بيار من غير ان تفتح عينيها . كان حسبها ان تبذل جهداً صغيراً حتى تدخل للمرة الاولى هذا العالم المأساوي .

وفكرت : « اني خائفة من التماثيل » . وكان ذلك توكيداً عنيفاً أعمى ، سحراً : كانت تريد لكل قواها ان تؤمن بحضور التماثيل ؛ وكانت تحاول ان تجعل من الضيق الذي كان يشلّ خاصرتها اليمنى حاسّة جديدة ، لمساً . كانت تحسّ بمرور التماثيل في ذراعها ، وفي خاصرتها ، وفي كتفها .

كانت التماثيل تطير منخفضة وعلى مهل ؛ وكانت تطنّ . وكانت ايف تعلم ان هيئتها كانت خبيثة وأنّ أهداباً كانت تخرج من الحجر حول عيونها ؛ ولكنها لم تكن تستطيع ان تتمثلها جيداً . وكانت تعلم ايضاً انها لم تكن بعدُ حيّة تماماً وانما كانت شرائح من اللحم وقشورٌ دافئة تظهر على أجسامها الكبيرة ؛ وكان الحجر ينقشر عند أطراف أصابعها وراحاتها تتأكّلها . ولم تكن ايف تستطيع ان ترى هذا كله : كانت تفكر في بساطة بان نساء هائلات كانت تندسّ بها ، عظيمةً خشنة ، بهيئة انسانية وبعناد الحجر الكثيف . « ان التماثيل تنحني على بيار — وكانت ايف تبذل جهداً عنيفاً جداً حتى ان يديها أخذتا ترتعشان — إنها تنحني عليّ .. » وفجأة ثلّجتها صيحة هائلة . « لقد لمسته » . وفتحت عينيها : كان رأس بيار بين يديه ، وكان يلهث . وأحسّت ايف بأنها مرهقة ؛ وفكرت في ندم : « انها لعبة ؛ لم تكن الا لعبة ، وانا لم أصدقها لحظة واحدة . وفي ذلك الحين ، كان يتألم ألماً حقيقياً . »

واسترخى بيار وتنفّس بقوة . ولكن بؤبؤيه ظلاّ منبسطين بصورة غريبة ؛ وكان يتفصّد عرقاً . وسألها :

— هل رأيتها ؟

— لا أستطيع ان أراها .

— هذا أفضل بالنسبة اليك ، فانها سوف تخيفك .

وأضاف يقول : — اما انا ، فقد تعوّدت .

وكانت يدا ايف ما تزالان ترتجفان ، وكان الدم قد صعد الى رأسها ، وتناول بيار سيكارة من جيبه وحملها الى فمه ، ولكنه لم يشعلها . وقال :

— سيّان عندي ان أراها ، ولكني لا اريد ان تلمسي : فانا أخشى ان

تحدث لي بثوراً .

وفكر لحظة ثم سأل :

ــ هل سمعتها ؟

قالت ايف : ــ نعم . لكأنّ أصواتها محرّك طائرة . (وكان بيار قد قال لها هذه العبارة بحذافيرها ، يوم الأحد السابق)

وابتسم بيار في شيء من التنازل ، وقال :

ــ انك تبالغين .

ولكنه ظلّ ممتقعاً . ونظر الى يدي ايف :

ــ ان يديك ترتجفان . لقد أثّر ذلك عليك يا عزيزتي المسكينة أغات . ولكنك لست بحاجة الى الحنق : إنها لن تعود قبل الغد .

لم تكن ايف تستطيع ان تتكلم ، وكانت اسنانها تصطك ، وكانت تخشى ان يلحظ بيار ذلك . وتأمّلها بيار طويلاً ، ثم قال وهو يهزّ رأسه :

ــ انك جميلة جداً . فيا للحسرة ! يا للحسرة حقاً !

ومدّ يده بسرعة فلامس أذنها :

ــ يا شيطانتي الجميلة ! انك تضايقينني قليلاً ، فانت اجمل مما ينبغي : وهذا ما يسلّيني . ولو لم تكن القضية قضية استسلام ...

وتوقّف وهو ينظر الى ايف في دهشة ، ثم قال وهو يبسم بسمة غامضة :

ــ ليست هي هذه الكلمة .. لقد جاءت .. لقد جاءت . كانت تلك الكلمة الاخرى على طرف لساني .. فاذا بهذه تحتل مكانها . لقد نسيت ما كنت اقوله لك .

وفكر لحظة وهزّ رأسه قائلاً :

ــ كفى . انني سأنام .

واضاف بصوت طفولي :

ــ انت تعلمين يا أغات اني متعب . فانا لا أجد بعدُ أفكاري .

وقذف بسيكارته ونظر الى السجادة نظرة قلقة . ودسّت ايف وسادة تحت رأسه ، فقال لها وهو يغمض عينيه :
– تستطيعين ان تنامي انت ايضاً . فانها لن تعود .

« استسلام » . كان بيار نائماً ، وكان على وجهه نصف بسمة بريئة ؛ وكان رأسه مائلاً : فكأنه كان يريد ان يلامس خدّه بكتفه . ولم تكن ايف على نعاس ، كانت تفكر : « استسلام » . كان بيار قد اتخذ فجأة هيئة البلادة وسالت الكلمة خارج فمه ، طويلة مبيضّة . وكان بيار قد نظر امامه في دهشة كما لو انه كان يرى الكلمة ولكنه لا يتعرّفها ؛ كان وجهه فاغراً ، طرياً ، وكان يبدو وكأن شيئاً قد انكسر فيه . « لقد دمدم . وهذا ما حدث لــه للمرة الاولى : والحق انه لاحظ ذلك ، وقال انه لم يكن يجد بعدُ أفكاره . » وأرسل بيار أنّة شهوانية صغيرة ورسمت يده حركة خفيفة . ونظرت اليه ايف بقسوة : « ترُى كيف سيفيق ؟ » كان ذلك يتأكلها . كان عليها ان تفكر ببيار ، كلما نام ، ولم تكن تستطيع الامتناع عن ذلك . وكانت تخشى ان يستيقظ بعينين مغتلمتين فيأخذ في الدمدمة . وفكرت : « انني بليدة ، فان هذا لن يبدأ قبل عام : هكذا قال فرانشو . » ولكن الضيق لم يكن يغادرها ؛ عام ؛ شتاء وربيع وصيف وبداءة خريف آخر . سوف تختلط هذه الخطوط ذات يوم ، وسيَدَعُ لفكّه ان يرتخي ، وسيفتح عينين دامعتين نصف فتحة .
وانحنت ايف على يد بيار فوضعت عليها شفتيها : « سأقتله قبل ذلك . »

الجدار

دُفعنا الى قاعة كبيرة بيضاء ، وأخذت عيناي تطرفان لأن النور كـان يوجعهما . ثم رأيت طاولة وأربعة أشخاص خلف الطاولة ؛ كانوا بلباسٍ مدنيّ ، وكانوا ينظرون في أوراق أمامهم . وكان باقي المساجين قد حُشروا في الداخل ، فوجب علينا أن نعبر القاعة كلها لننضمّ إليهم . وكان فيهم عديدون ممن كنت أعرفهم ، وآخرون لا بدّ أنهم أجانب . اما الشخصان اللذان كانا أمامي ، فقد كانا أشقرين ، وكان لهما رأسان مستديران ؛ وكان أحدهما يشبه الآخر : وأتصوّر أنهما فرنسيان . وكان أقصرهما قامة يرفع بنطالـه طوال الوقت : كان ذلك مثيراً للأعصاب.

وقد استمرّ ذلك طوال ثلاث ساعات ؛ كنت مخبّلاً منهكاً ، وكان رأسي فارغاً ؛ ولكن القاعة كانت مدفّأة على نحو جيّد ، وكنت أجد هذا لذيذاً : فان أربعاً وعشرين ساعة كانت قد انقضت علينا ونحن نرتجف برداً . وكان الحرس يقتادون المساجين أمام الطاولة واحداً بعد الآخر . فكان الأشخاص الأربعة يسألونهم آنذاك عن أسمائهم ومِهَنهم . وفي أكثر الأحيان كانوا لا يذهبون الى أبعد من ذلك — او أنهم كانوا يطرحون سؤالاً من هنا او من هناك : « هل شاركت في عملية تخريب الذخائر ؟ » او : « اين كنت صباح يوم ٩ وماذا كنت تفعل ؟ » ولم يكونوا يُصغون الى الأجوبة ، او لم يكن يبدو عليهم ذلك على الأقل ؛ كانوا يصمتون لحظة وينظرون باستقامة أمامهم ثم يأخذون في الكتابة . وقد سألوا « توم » هل من الصحيح انه كان يخدم في

« الفرقة » الدولية : ولم يكن بوسع توم ان يقول العكس بسبب الاوراق التي وُجدت في سترته . أما « جوان » فلم يسألوه عن شيء ، ولكنهم كتبوا وقتاً طويلاً بعد أن أدلى لهم باسمه . وقال جوان :

ــ إن أخي جوزيه هو الفوضويّ . وأنتم تعلمون جيداً انه ليس هنا بعدُ . اما انا ، فلا أنتمي الى ايّ حزب ، ولم يسبق لي قط ان تعاطيت السياسة .

فلم يجيبوا . وقال جوان كذلك :

ــ انني لم أفعل شيئاً . ولا اريد ان أدفع ثمن ما فعله الآخرون .

وكانت شفتاه ترتعشان . وأسكته أحد الحرس ثم اقتاده . وجاء بعد ذلك دوري :

ــ هل تُدعى بابلو ايبياتا ؟

فأجبت أن نعم .

ونظر الرجل الى اوراقه وقال لي :

ــ اين هو رامون غري ؟

ــ لا ادري .

ــ لقد خبّأته في بيتك من ٦ الى ١٩ ؟

ــ لا.

فكتبوا لحظة ، ثم أخرجني الحرس .

وفي الممر ، كان توم وجوان ينتظران بين حارسين . وأخذنا نمشي . وسأل توم أحد الحارسين :

ــ وإذن ؟

فقال الحارس : ــ ماذا ؟

ــ اهو استجواب ام محاكمة ؟

فقال الحارس :

ــ بل كانت هي المحاكمة .

ـ وما الذي سيفعلون بنا إذن ؟

فأجاب الحارس بجفاء :

ـ ستُبلّغون الحكم في زنزاناتكم .

وكان ما يعتبر زنزانة أحد أقبية المستشفى . وقد كان البرد فيه فظيعاً بسبب تيارات الهواء . وكنّا طوال الليل نرتجف برداً ، ولم يكن الوضع خيراً من ذلك في أثناء النهار . وكنت قد قضيت الايام الخمسة السابقة في حبس بالأبرشية يرجع عهده بلا شك الى القرون المتوسطة : ولما كان ثمة كثير من المساجين وقليل من الحيّز ، فقد رُكنوا كيفما اتفق . ولم أكن آسفاً على محبسي : فانا لم اكن أشكو فيه من البرد ، وانما كنت فيه وحدي ، وكان ذلك محنقاً مع مرور الزمن . واما في القبو ، فقد كان لي رفاق .

لم يكن جوان يتكلم : فقد كان خائفاً ، ثم إنه كان أصغر سنّاً من ان يكون له موقف حازم . اما توم ، فقد كان متحدّثاً بارعاً ، وكان يتقن الاسبانية . وقد كان في القبو مقعد خشبيّ طويل وأربع وسائد من قش . ولقد جلسنا حين أعادونا اليه وجعلنا ننتظر في صمت . وقال توم بعد لحظة :

ـ إننا هالكـــون .

فقلت : ـ وهذا هو رأيي كذلك ، ولكني أظنّ أنهم لن يفعلوا شيئاً للصغير .

قال توم : ـ ليس لديهم ما يأخذونه عليه . كل ما في الأمر انه شقيق مناضـــل .

ونظرت الى جوان : ولم يكن يبدو عليه انه يسمع . واستطرد توم يقول :

ـ أتدري ماذا يفعلون في ساراغوس ؟ إنهم يُضجعون الأشخاص في الطريق ويمرّون فوقهم بشاحناتهم . لقد أنبأنا بذلك مراكشي فارّ . وهـــم يقولون انهم يفعلون ذلك توفيراً للذخيرة .

فقلت : ـ ولكن هذا لا يوفّر البنزين .

وكنت مغتاظاً من توم : فما كان ينبغي له ان يقول هذا . وقد أضاف يقول :

ـ لقد كان هناك ضبّاط يتنزهون في الطريق ويراقبون ذلك ، وأيديهم في جيوبهم ، وهم يدخّنون السكاير . هل تعتقد أنهم سيُجهزون على أولئك الأفراد ؟ دعْك من هذا ! إنهم يَدّعونهم يزعقون ويصرخون . وقد يستمر ذلك ساعةً في بعض الأحيان . وكان المراكشي يقول إنه كاد في المرة الأولى يهلك .

قلت : ـ لا أحسّ أنهم سيفعلون ذلك هنا . إلاّ اذا كانوا مفتقرين حقاً الى الذخيرة .

وكان النهار يدخل من أربعة منافذ ومن كوّة مستديرة فُتحت في السقف الى اليسار ، وكانت تطلّ على السماء . ومن هذه الفتحة المستديرة ، التي تُغلق عادةً بباب صغير ، كان الفحم يُلقى الى القبو . وقد كان تحت الكوّة تماماً كومة كبيرة من غبار الفحم ، وكان معدّاً من قبل لتدفئة المستشفى ، ولكن المرضى كانوا قد أُجلوا ، منذ بدء الحرب ، فظلّ الفحم قائماً هناك بلا استعمال ، حتّى ان المطر كان يسقط عليه بعد أن نسي أحدهم إغلاق الباب الصـــغير .

وأخذ توم يرتجف ، وقال وهو يشمّ :

ـ انني ارتجف . إن الرعشة تعاودني .

ونهض وأخذ يقوم بحركات رياضية . وكان قميصه ينفتح عن صدره الأبيض المُشعر لدى كل حركة . وقد تمدّد على ظهره ، ورفع ساقيه في الهواء ، وقام بحركة المقصّ : وكنت ارى موخرته الضخمة ترتجف . كان توم قوياً شديد البأس ، ولكنه كان يملك كثيراً من الشحم . وكنت افكّر أنّ رصاص بندقية او رؤوس حراب لن تلبث ان تنغرس في هذه الكتلة من اللحم الطري ، كمـــا تنغرس في قطعة من الزبـــدة . ولم يكن ذلك يُحدث لديّ من الأثر كما لو انه كان هزيلاً .

لم أكن أشكو البرد تماماً ، ولكني كففت عن الإحساس بكتفيّ وذراعيّ . وكان ينتابني بين الفينة والفينة شعور بأن شيئاً ما ينقصني ، فأبدأ في البحث

عن سترتي فيما حولي ، ثم أتذكر فجأة انهم لم يعطوني سترة . وكان ذلك شاقاً . لقد أخذوا ثيابنا ليعطوها جنودهم ، ولم يتركوا لنا سوى قمصاننا — وهذه البناطيل القماشية التي كان المرضى في المستشفى يرتدونها في إبان الصيف .

ونهض توم بعد فترة ، فجلس الى جانبي وهو يلهث .

— هل عاد لك الدفء ؟

— يلعن دينه ، كلا . ولكني ضيق الأنفاس .

وحوالي الساعة الثامنة مساء دخل مقدم مع كتائبيين . وكانت بيده ورقة . وقد سأل الحارس :

— ما هي أسماء هؤلاء الثلاثة ؟

فقال الحارس : — ستينبوك وايبياتا وميربال .

فوضع المقدم نظارته وحدق في لائحته :

— ستينبوك .. ستينبوك .. هوذا . لقد حكم عليك بالموت . وسترمى بالرصاص صباح الغد .

ونظر مرة اخرى ثم قال :

— والآخران كذلك .

قال جوان : — هذا غير ممكن . انا لا .

فنظر اليه المقدم نظرة اندهاش :

— ما اسمك ؟

فقال : — جوان ميربال .

قال المقدم : — ان إسمك مقيد هنا . لقد حكم عليك .

فقال جوان : — انني لم أفعل شيئاً .

فهز المقدم كتفيه وانفتل نحو توم ونحوي :

— هل أنتما من سكان الباسك ؟

— ليس فينا من هو من سكان الباسك .

فبدا عليه الإنزعاج :

– لقد قيل لي إن هناك ثلاثة باسكيين . ولن أضيع وقتي في الجري وراءهم . وإذن ، إنكم بالطبع لا تريدون كاهناً ؟

فلم نجب . وقال :

– سيأتي الساعة طبيب بلجيكي . وهو يحمل إذناً بقضاء الليل معكم .

وأدّى التحية العسكرية وخرج .

قال توم : – ما الذي كنت أقوله لك ؟ إننا هالكون .

قلت : – نعم . وهذا فظيع بالنسبة للصغير .

كنت أقول ذلك لأكون عادلاً ، ولكني لم أكن احبّ الصغير . كان له وجهٌ مفرط الدقّة ، وكان الخوف والألم قد شوّهاه ولويا جميع ملامحه . منذ ثلاثة أيام كان ما يزال صبيّاً اقرب الى اللطف والرقة ، مما كان جديراً بأن يروق ؛ اما الآن ، فقد كان يشبه طابة قديمة ، وكنت أفكر بأنه لن يعود شاباً أبداً ، حتّى ولو أُطلق سراحه . ولم يكن بالأمر السيء ان يُعطى بعض الشفقة ، ولكن الشفقة تثير اشمئزازي؛ إنه بالأحرى ينفّرني . ولم يكن قد قال شيئاً آخر بعد ، ولكنه كان قد أصبح رماديّ اللون : كان وجهه ويداه رمادية . وقد عاد يجلس وهو ينظر الى الأرض بعينين مستديرتين . وكان توم ذا قلب طيّب ، وقد شاء ان يأخذ بذراعه ، ولكن الصغير تخلّص منه بعنف وعلى وجهه تكشيرة .

وقلت له بصوت منخفض :

– دعْه ، فأنت ترى جيداً أنه سيأخذ في الزعيق .

فأطاع توم على مضض ؛ لقد كان يودّ لو يؤاسي الصغير ، فيشغله ذلك ويصرفه عن التفكير بنفسه . غير أن ذلك كان يزعجني : إنه لم يسبق لي قط ان فكرت بالموت لأن فرصة ذلك لم تمثل امامي ؛ اما الآن ، فان الفرصة ماثلة هنا ، ولم يكن ثمة ما يُعمل غير التفكير بذلك .

وأخذ توم يتكلم ، فسألني :

– هل قتلت أشخاصاً ، انت ؟

فلم أجب . فبدأ يشرح لي انه قتل ستة منذ مطلع شهر آب ؛ ولم يكن مطلعاً على الوضع ، وكنت أرى جيداً انه لم يكن « يريد » ان يطلع عليه . وانا نفسي لم أكن أتحقّق كل التحقّق ، وكنت أتساءل عما اذا كانوا يتألمون كثيراً ، وافكر بالرصاصات وأتصوّر مطرها المحرق عبر جسمي . كل ذلك كان خارج المسألة الحقيقية ، ولكني كنت هادئاً : كان امامنا الليل بطوله لكي نفهم . وقد كفّ توم بعد برهة عن الكلام ، فنظرت اليه من زاوية عيني ؛ فرأيت انه قد أصبح رمادي اللون ، هو أيضاً ، وان هيأته كانت بائسة ، فقلت لنفسي : « لقد بدأ الأمر » . وكان الليل قد هبط تقريباً ، وكان شعاعٌ كابٍ يتسرّب عبر الكوى وكومة الفحم فيُحدث لطخة ضخمة تحت السماء ؛ ومن ثقب السقف ، كنت قد بدأت ارى نجمة : سيكون الليل صافياً ومثلجاً .

وفتح الباب ودخل حارسان . وكان يتبعهما رجل أشقر يرتدي ثوباً عسكرياً صوفيّ اللون ؛ وقد حيّانا وقال :

ـ اني طبيب . ولديّ إذنٌ بأن ألازمكم في هذه الظروف الشاقّة .

وكان له صوت عذبٌ متميّز . وقد قلت له :

ـ ماذا اتيت تفعل هنا ؟

ـ أضع نفسي تحت تصرفكم ، وسأبذل كل جهدي لتكون هذه الساعات أقلّ ثقلاً عليكم .

ـ لماذا اتيت الينا ؟ إن هناك أشخاصاً آخرين ، والمستشفى يغصّ بالنزلاء .

فأجاب بلهجة مبهمة :

ـ لقد أرسلوني الى هنا .

وأضاف على عجل :

ـ تحبّون ان تدخّنوا ، أليس كذلك ؟ إن معي سكاير ، بل حتى سيكارات .

وقدّم لنا سكاير انكليزية ، ولكننا رفضنا . ونظرت اليه في عينيه فبدا

منزعجاً ، وقلت له :

– انك لا تجيء الينا بدافع الشفقة . والحق انني أعرفك . فلقد رأيتك مع بعض الفاشيين في باحة الثكنة يوم قُبض عليّ .

وهممت باستئناف كلامي ، ولكن حدث لي فجأة شيء ما باغتني : لقد كفّ حضورُ هذا الطبيب عن إثارة اهتمامي فجأة . إن من عادتي اذا اهتممت بإنسان ألاّ أتخلّى عنه . ومع ذلك ، فقد زايلتني الرغبة في الكلام ، فهززت كتفيّ وصرفت عنه عينيّ . وبعد ذلك بقليل ، رفعت رأسي : فاذا هو يرقبني بهيئة فضول . وكان الحارسان قد جلسا على فراشٍ من قشّ . وكان بدرو ، الهزيل الطويل ، يُدير إبهاميه ، والآخر يحرّك رأسه بين الفينة والفينة ليمنع نفسه من النوم .

وقال بدرو فجأة للطبيب :

– هل تريد ضوءاً ؟

فأومأ برأسه ان « نعم » : أظنّ أنه يملك من الذكاء مقدار ما يملك الانسان البليد تقريباً ، ولكن لا شك في انه لم يكن خبيثاً . وقد خيل إلي ، وانا أنظر الى عينيه الكبيرتين الزرقاوين الباردتين ، ان ما يعوزه انما هو خاصة قصور الخيال . وخرج بدرو ثم عاد بمصباح كاز وضعه على طرف المقعد الخشبي الطويل . وكان يرسل نوراً رديئاً ، ولكنه كان خيراً من لا شيء : فقد سبق لهم مساء البارحة ان تركونا في الظلام . ونظرت فترةً من الزمن الى دائرة النور التي كان المصباح يرسمها على السقف . وكنت مبهوراً . ثم استيقظت فجأة ، فامّحت دائرة النور واحسستني مسحوقاً تحت عبء هائل . لم تكن هي فكرة الموت ، ولا الخوف : وانما كان ذلك شيئاً غُفلاً . كانت وجنتاي تحرقانني وكان بي صداع .

ونفضت نفسي ونظرت الى رفيقيّ . كان توم قد دسّ رأسه بين يديه ، فلم أكن أرى الا رقبته السمينة البيضاء . أما جوان الصغير ، فقد كان اسوأنا وضعاً ، وكان فاغر الفم ومنخراه يرتعشان . وقد اقترب الطبيب منه ووضع

يده على كتفه كأنما يشجّعه : ولكن عينيه ظلتا باردتين . ثم رأيت يد البلجيكي تهبط خفيةً على ذراع جوان حتى الرسغ . وقد استسلم جوان للحركة في لامبالاة . وتناول البلجيكي رسغه بين أصابعه ، بهيئة شاردة ، وفي الوقت نفسه تراجع قليلاً وتدبّر أمره ليوليني ظهره . ولكنني انحنيت الى خلف فرأيته يسحب ساعته وينظر اليها لحظة من غير ان يترك رسغ الصغير . وبعد لحظة ترك اليد الجامدة تسقط وذهب يستند الى الجدار ؛ وكأنما تذكّر فجأة شيئاً هاماً جداً يقتضي تسجيله على الفور ، فتناول من جيبه دفتراً صغيراً وكتب عليه بضعة أسطر . وفكرت في غضب : « يا للجبان القذر ! لئن أقبل يجسّ نبضي ، فسأرسل قبضتي في وجهه الوسخ ! »

ولم يجيء ، ولكني أحسست أنه كان ينظر إليّ ، فرفعت رأسي وبادلته نظرته . وقال لي بصوت لا شخصيّ :

– ألا ترى أننا نرتجف هنا من البرد ؟

كان يبدو وكأنه مقرور ؛ كان بنفسجيّ اللون ، وقد أجبته :

– انني لا أشعر بالبرد .

ولم يكف عن النظر إليّ بعين قاسية . وفهمت فجأة فرفعت يديّ الى وجهي : كنت أتفصّد عرقاً . في هذا القبو ، في إبّان الشتاء ، في ملتقى التيارات الهوائية ، كنت أرشح عرقاً . وأمررت أصابعي في شعري الذي كان قد تلبّد بالنضح ؛ وتبيّنت في الوقت نفسه أن قميصي كان مرطباً وكان يلتصق بجلدي : كنت أسيل عرقاً منذ ساعة على الأقل من غير ان أحسّ بشيء . ولكن ذلك لم يَفُتْ البلجيكي الخنزير ؛ كان قد رأى القطرات تتدحرج على خدّيّ وكان قد فكّر : إن هذه آية حالة من الرهبة شبه المَرَضية ؛ وكان قد أحسّ بأنه طبيعيّ وفخور بأن يكون كذلك لأنه كان يُحسّ البرد . واردت ان أنهض لأذهب فأدقّ عنقه ، ولكني ما كدت أقوم بحركة بسيطة حتى امّحى خجلي وغضبي ، وعدت أسقط على المقعد الخشبي بلا اكتراث .

واكتفيت بأن فركت عنقي بمنديلي لأني كنت الآن أحسّ العرق يقطر

من شعري على رقبتي ، وكان ذلك يزعجي . والحق اني ما لبثت ان عدلت عن الدلك ، كان ذلك غير مجد : فان منديلي كان قد أصبح قابلاً للعصر ، وما زلت أرشح . كنت أرشح ايضاً في الفخذين ، وكان بنطالي الرطب يلتصق بالمقعد الخشبي .

وتكلم جوان الصغير فجأة :

ـ انت طبيب ؟

قال البلجيكي : ـ نعم .

ـ هل يتعذّب المرء .. طويلاً ؟

قال البلجيكي بصوت أبوي :

ـ اوه ! متى ؟ ولكن لا .. إن الأمر ينتهي بسرعة .

كان يبدو وكأنه يُطمئنُ مريضاً قد دفع أجرته .

ـ ولكني .. قيل لي .. ان الأمر يقتضي غالباً دورتين من الإطلاق .

فقال البلجيكي وهو يهزّ رأسه :

ـ أحياناً . فقد يتفق ألاّ تصيب الدورة الاولى ايآً من الأعضاء الحيوية .

ـ وعند ذلك يجب ان يحشوا البنادق من جديد ويصوّبوا مرة اخرى ؟

ففكّر وأضاف بصوت أبحّ :

ـ إن ذلك يستغرق وقتاً !

كان يُحسّ خوفاً فظيعاً من ان يتألم ، ولم يكن يفكر بغير هذا : وكان ذلك يتناسب وسنّه . اما انا ، فلم اكن أفكر بهذا بعدُ ، ولم يكن الخوف من الألم هو الذي يجعلني أنضح العرق .

وقد نهضت وسرت حتى كومة الفحم . وانتفض توم ورماني بنظرة حاقدة : كنت أزعجه لأن حذائي كان يصرّ . وكنت أتساءل عما اذا كان وجهي في مثل وجهه امتقاعاً : ورأيت انه ما يزال يرشح . كانت السماء رائعة ، ولم يكن أي نور ينسلّ الى هذه الزاوية المظلمة ، ولم يكن لي إلاّ ان ارفع رأسي لألمح « الدب الأكبر » . ولكن ذلك لم يكن بعدُ كما كان في السابق :

كان بوسعي في الليلة السابقة ان ارى من محبسي في الأبرشية رقعة كبيرة من السماء ، وكانت كل ساعة من النهار تبتعث لديّ ذكرى مختلفة . ففي الصباح اذ كانت السماء ذات زرقة قاسية وخفيفة ، كنت افكر بشواطىء الاستحمام عند حافة الاطلنطيك ؛ وظهراً كنت ارى الشمس فأتذكّر حانة في اشبيلية كنت أشرب فيها المانزنيلا وانا آكل سمك السنمورة والزيتون ؛ اما بعد الظهر ، فقد كنت في الظلّ ، وكنت أفكر بالظلّ العميق الذي يمتدّ على نصف الحلبات ، بينما يشعشع النصف الآخر في الشمس : لقد كان شاقاً حقاً ان ارى الأرض كلّها على هذا النحو تنعكس في السماء . اما الآن فقد كان بوسعي ان انظر في الهواء ما شئت ، فان السماء لم تكن تبتعث لديّ بعدُ شيئاً . وكنت اوثر هذا . وقد عدت أجاس قرب توم ؛ وانقضت فترة طويلة .

وأخذ توم يتكلم ، بصوت منخفض . كان لا بدّ له من ان يتكلم دائماً ، وإلاّ فانه لا يتعرف جيداً الى نفسه في افكاره . وأعتقد انه انما كان يتوجّه إليّ ، ولكنه لم يكن ينظرني . ولا شك في انه كان يخشى ان يراني كما كنت : ممتقعاً وناضحاً بالعرق : لقد كنّا متشابهين وأسوأ من مرآتين احدنا بالنسبة للآخر . كان ينظر الى البلجيكي ، الحيّ . وكان يقول :

— هل تفهم انت ؟ اما انا ، فلا أفهم .

وأخذت أتكلم بصوت منخفض كذلك . وكنت أنظر الى البلجيكي .

— ماذا ؟ ماذا هناك ؟

— سيحدث لنا شيء لا أستطيع ان أفهمه .

وكان ثمة رائحة غريبة حول توم . وخُيّل إليّ اني كنت أشدّ إحساساً بالروائح مما انا في العادة . وقهقهت :

— ستفهم عمّا قليل .

فقال بلهجة معاندة :

— ليس ذلك بواضح . اني أودّ كثيراً ان أملك الشجاعة ، ولكن ينبغي

على الأقل ان أعرف ... اسمع . سوف يقودوننا الى الساحة . حسناً . وسيصطف الجنود امامنا . كم سيكون عددهم ؟

ـ لا أدري . خمسة او ثمانية . لا اكثر .

ـ حسناً . سيكونون ثمانية . وسيصيحون بهم : « صوّبوا » وسأرى البنادق الثماني مصوّبة نحوي . وأحسب اني اودّ لو أدخل في الجدار ، وسأدفع الجدار بظهري بكل قواي ، ولكن الجدار سيصمد ، كما يحدث في جميع الكوابيس . هذا كلّه أستطيع أن أتصوّره . آه ! كم أستطيع أن أتصوّره ، لو كنت تعلم !

فقلت له :

ـ كفى ! إنني انا أيضاً أتصوّره .

ـ لا بدّ ان يُحدث ذلك ألماً فظيعاً .

وأضاف في شراسة :

ـ انت تعلم أنّهم يصوّبون على العينين والفم بغاية التشويه ، لقد بدأت منذ الآن أحسّ الجروح ؛ منذ ساعة تنتابني آلامٌ في رأسي وعنقي ليست هي آلاماً حقيقية ؛ بل هي أسوأ : إنها الآلام التي سأحسّها غداً صباحاً . ولكن بعد ذلك ؟

وكنت ادرك جيداً ما كان يقصد إليه ، ولكن لم اكن اريد ان يبدو عليّ ذلك : اما الآلام ، فقد كنت أنا ايضاً أحملها في جسمي ، كمجموعة من الندوب الصغيرة . لم اكن أستطيع التخلّص من الإحساس بها ، ولكني كنت مثله ، ولم اكن أعلّق عليها أهمية .

وقلت بقسوة :

ـ وبعد ذلك سوف تحشو فمك بالهندباء البريّة .

وأخذ يتحدث لنفسه وحدها : لم يكن يغادر البلجيكي بعينيه . ولم يكن يبدو على هذا أنه يسمعه . كنت أعرف ما الذي جاء يفعله ؛ لم يكن يهمّه ما كنا نفكر به ؛ كان قد جاء ينظر الى أجسامنا ، أجسام كانت تحتضر وهي حيّة .

كان توم يقول :

– كما يحدث في الكوابيس . إن المرء يريد أن يفكر بشيء ما ، ويُحسّ طوال الوقت أنه سيُدرك ويفهم ، ثم ينساب ذلك منه ويفوته . وأقول لنفسي : لن يكون بعد ذلك ثمة شيء . ولكني لا أفهم ما يعني هذا . هناك لحظات أدرك فيها ذلك تقريباً .. ثم يسقط هذا ، وأعود أفكّر بآلالام والرصاصات والانفجارات . أقسم انني ماديّ ؛ انني لم أصبح مجنوناً . ولكن هناك شيئاً معقداً . انني ارى جثتي : ليس ذلك صعباً ، ولكنني « انا » الذي اراها « بعينيّ » . ينبغي أن أتمكن من التفكير ... التفكير بأنني لن ارى بعدُ شيئاً ، ولن أسمع بعدُ شيئاً ، وان العالم سيستمرّ بالنسبة للآخرين . اننا لم نُخلق لنفكّر بهذا ، يا بابلو . بوسعك ان تصدّقني : لقد حدث لي مرة ان سهرت طوال الليل وانا انتظر شيئاً . ولكنّ هذا الأمر هنا مختلف : إنه يقبض علينا من الخلف ، يا بابلو ، ولن يتاح لنا الوقت للاستعداد له .

قلت : – أغلق فمك . أتريد ان انادي معرّفاً ؟

فلم يجب . وقد سبق لي ان لاحظت انه كان لديه ميلٌ للظهور بمظهر النبيّ ولمناداتي ببابلو بصوت أبيض . ولم أكن أحبّ هذا كثيراً ؛ ولكن يبدو ان جميع الايرلنديين هم كذلك . وكان لديّ شعور مبهم بأن رائحة بول تنبعث منه . والحق اني لم أكنّ كثيراً من الود لتوم ، ولم اكن أعرف سبب ذلك ، وكان المفروض ان أحفظ له قدراً اكبر من الودّ ، بحجة اننا كنا سنموت معاً . إن هناك أشخاصاً كان الأمر يكون معهم مختلفاً . مع رامون غري مثلاً . اما بين توم وجوان ، فقد كنت أحسّني وحيداً . والحق اني كنت أفضّل ذلك : فلو كنت مع رامون ، فلربّما تعطّفت ، ولكني كنت قاسياً قسوة فظيعة في تلك اللحظة ؛ وكنت أودّ أن أبقى قاسياً .

وظلّ يمضغ الكلمات ، في شيء من الشرود . والمؤكّد انه كان يتكلم حتى يمنع نفسه من التفكير . وكانت رائحة البول تنبعث منه فتفغم الأنف ، كما هو شأن المصابين بالبروستات . وقد كنت بالطبع من رأيه ، وكان بامكاني

اناقول كل ما كان يقوله: فليس « طبيعياً » ان يموت المرء . ومنذ ان ادركت اني مقبلٌ على الموت ، كفَّ كلّ شيء عن ان يبدو لي طبيعياً ، لا بقية الفحم هذه ، ولا ذلك المقعد الخشبي ولا وجه بدرو القذر . غير انه كان يسوءني ان أفكر تفكير توم نفسه . وكنتَ أعلم جيداً اننا ، طوال الليل ، سنواصل تفكيرنا نفسه في وقت واحد ، بفرق خمس دقائق ، او سنرشح عرقاً ، او سنرتعش في اللحظة نفسها . وقد حدجته بطرف عيني ، وللمرة الاولى بدا لي غريباً : كان يحمل موته على وجهه . وكنت مجروحاً في كبريائي : فطوال اربع وعشرين ساعة ، كنت قد عشت الى جانب توم ، واستمعت اليه ، وتحدثت معه ، وكنت أعرف أنه لم يكن بيننا شيء مشترك . وها نحن الآن متشابهان كتوأمين ، لأننا بكل بساطة سنموت معاً .

وتناول توم يدي من غير أن ينظر إليّ :

ــ بابلو .. انني أتساءل ... أتساءل عمّا اذا كنّا حقاً سننعدم .

وأفلتت يدي ، وقلت له :

ــ انظر ما بين قدميك ، ايها القذر .

كان بين قدميه مستنقع ، وكانت قطرات تسقط من بنطاله . وقد قال في شدة :

ــ ما هذا ؟

فقلت له : ــ انك تبول في سروالك .

فقال غاضباً :

ــ هذا غير صحيح . انني لا أبول . انني لا أحسّ شيئاً .

وكان البلجيكي قد اقترب ، فسأل في لهجة مشاركة زائفة :

ــ هل تُحسّ بألم ما ؟

فلم يجب توم . ونظر البلجيكي إلى المستنقع من غير ان يقول شيئاً . وقال توم بصوت متوحش :

ــ لا ادري ما هذا ، ولكني لست خائفاً . أقسم لكم اني لست خائفاً .

فلم يجب البلجيكي . ونهض توم واتجه الى ركن يبول فيه . ولما عاد وهو يزرّر فتحة بنطاله ، جلس ثـانية وانقطع عن الكلام . وكان البلجيكي يسجّل ملاحظات .

وكنا ننظر اليه نحن الثلاثة لأنه كان حياً . كانت له حركات حيّ ، وهموم حيّ ؛ كان يرتجف في هذا القبو ، كما لا بدّ للاحياء ان يرتجفوا ؛ وكان له جسم مطيع جيّد التغذية . اما نحن ، فلم نكن نُحسّ بعدُ أجسامنا ، لم نكن نُحسّها بعدُ على النحو نفسه ، بأية حال . وكان بودّي ان أجسّ بنطالي ، فيما بين فخذيّ ، ولكنني لم اكن أجروْ ؛ وكنت انظر الى البلجيكي ، مقوساً على ساقيه ، سيّد عضلاته — والذي كان يستطيع ان يفكّر في الغد . لقد كنّا هنا ثلاثة أشباح محرومة من الدم ؛ كنا ننظر اليه وكنا نمتصّ حياته كالخفافيش .

وانتهى أخيراً الى الدنوّ من جوان . أتراه كان يريد ان يجسّ رقبته بدافع مهنيّ ما ، ام انه كان يستجيب لشعور إحسان شفوق ؟ لئن فعل ذلك بدافع الاحسان فتلك هي المرة الوحيدة الفريدة طوال الليل . لقد لامس رأس جوان الصغير وعنقه . واستسلم الفتى لحركته ، من غير ان يغادره بعينيه ، ثم تناول يده فجأة ونظر اليها نظرة غريبة . كان يُمسك بيد البلجيكي بين يديه ، ولم يكن فيهما شيء مستحبّ ، تانك الكماشتان الرماديتان اللتان كانتا تشدّان هذه اليد السمينة المحمرّة . وكنت أتوقّع جيداً ما سوف يحدث ، ولا بدّ ان توم كان يتوقعه ايضاً : ولكن البلجيكي لم يكن يرى فيه الا ناراً ، فكان يبتسم بسمة أبوية . وبعد لحظة ، رفع الفتى اليد الضخمة الحمراء الى فمه وأراد ان يعضّها . فتخلّص البلجيكي بحيوية وتراجع نحو الجدار متعثراً . وقد نظر الينا لحظةً في شيء من الذعر ، ولا بدّ انه كان يدرك فجأة أننا لم نكن إلاّ رجالاً مثله . وأخذت أضحك ، فانتفض أحد الحارسين . اما الآخر ، فكان قد أغفى ، وكانت عيناه مفتوحتين على سعتهما ، بيضاوين .

كنت أحسّني متعباً مهتاجاً في الوقت نفسه. ولم اكن اريد ان افكر بعدُ بما سوف يحدث عند الفجر، بالموت. إن ذلك لم يكن ليجدي شيئاً فأنا لم اكن التقي إلاّ كلاماً او فراغاً. ولكني كنت ما ان احاول التفكير بشيء آخر حتى ارى فوهات بندقيات مصوّبة نحوي. وربما عشت عشرين مرة متتالية مشهد إعدامي؛ بل لقد حسبت مرة ان الأمر يتمّ فعلاً: لا بدّ اني كنت قد غفوت دقيقة. كانوا يجرونني نحو الجدار وانا أتخبّط، وكنت اطلب منهم العفو. وقد استيقظت متنفضاً ونظرت الى البلجيكي: كنت خائفاً ان اكون قد صرخت في أثناء نومي. ولكنه كان يملّس شاربه؛ إنه إذن لم يلاحظ شيئاً. وأظنّ اني لو شئت لكان بوسعي ان أنام فترة: لقد كنت ساهراً منذ ثمان وأربعين ساعة، وكنت منهوك القوى. غير اني لم اكن راغباً في فقد ساعتين من الحياة يكونون قد جاؤوا في أثنائهما فأيقظوني عند الفجر وتبعتهم مخدّراً بالنوم من غير وعي؛ لم اكن اريد هذا، لم اكن اريد ان أموت كحيوان، كنت اريد ان أفهم. ثم اني كنت أخشى ان تحدث لي كوابيس. وقد نهضت وذرعت القبو جيئة وذهاباً، وأخذت افكر بحياتي السابقة، رغبة مني في تغيير افكاري. وقد عاودني حشد خليط من الذكريات. وكان فيها الطيّب والرديء — او هكذا كنت أصفها «من قبل». كان فيها وجوه وحكايات. وقد استعدت صورة وجه مصارع ثيران اخترق الثور بطنه بقرنيه في حفلة أقيمت بفلانسيا، ووجه أحد أخوالي، ووجه رامون غري. وتذكرت حكايات: كيف عشت في بطالة طوال ثلاثة أشهر من عام ١٩٢٦، وكيف أوشكت ان أموت جوعاً. وتذكرت ليلة كنت قد قضيتها على مقعد خشبي طويل في غرناطة: كان قد مرّ ثلاثة ايام لم أذق فيها طعاماً، وكنت أتميّز غضباً، ولم اكن اريد ان أموت. إن هذا يجعلني أبتسم. بأي نهَم كنت أعدو خلف السعادة، وخلف النساء، وخلف الحرية! ما جدوى ذلك؟ لقد اردت ان أحرّر اسبانيا، وكنت معجباً ببي اي مرغال، وكنت قد انتسبت الى الحركة الفوضوية، وكنت

قد خطبت في اجتماعات عامة : كنت أحمل كل شيء على محمل الجدّ ، كما لو اني كنت مخلّداً .

في تلك اللحظة ، أحسست بأني كنت أمسك حياتي كلّها امامي وفكرت : « إنها لكذبة قذرة . » انها لم تكن تساوي شيئاً ما دامت قد انتهت . وتساءلت كيف استطعت من قبل ان أتنزّه وأمازح الفتيات : انني ما كنت لأحرّك بنصري لو تصوّرت تصوّراً فحسب انني سأموت على هذا النحو . كانت حياتي امامي « موصدة » مغلقة كالكيس ، ومع ذلك فان كل ما كان في داخلها كان غير ناجز . وحاولت لحظةً ان أحكم عليها . كان بودّي لو أقول لنفسي : انها حياة جميلة . ولكن لم يكن ممكناً الحكم عليها ، فانها كانت بداءة : كنت قد انفقت وقتي وانا أخطّط للخلود ، فلم أفهم شيئاً قطّ . ولم أكن متحسّراً على شيء : كان ثمة كثير من الأشياء التي كان بامكاني أن أتحسّر عليها ، من مثل نكهة المانزنيلا او الحمامات التي كنت آخذها في خليج صغير في قادش ، ولكن الموت كان قد انتزع سحر كلّ شيء .

وفجأة ، خطرت للبلجيكي فكرة عظيمة ، فقال لنا :

– إن بوسعي يا أصدقائي أن أتطوع – شريطة ان توافق الادارة العسكرية – بحمل كلمة منكم او ذكرى الى الأشخاص الذين يحبونكم ...

فدمدم توم :

– ليس لي أحد ...

ولم أجب بشيء . وانتظر توم لحظة ثم تأملني بفضول :

– الا تبعث بشيء الى كونشا ؟

– لا .

وكنت أحتقر هذا التواطوءُ المتعاطف : كانت تلك غلطتي ، فلقد تحدثت عن كونشا في الليلة السابقة ؛ وكان عليّ ان أمتنع عن ذلك . كنت معها منذ عام ، وقد كنت على استعداد عشية الأمس لأن أقطع ذراعي بضربة فأس من أجل ان أراها خمس دقائق . وكان هذا ما دفعني الى التحدث عنها ،

كان ذلك أقوى مني . اما الآن ، فلم يكن لديّ بعد أية رغبة في ان أراها ثانية ، ولم يكن لديّ بعد ما أقوله لها . بل انى لا رغبة عندي في ان أضمّها بين ذراعيّ : كنت أشمئز من جسمي ، لأنه كان قد أصبح رمادياً ، وكان يرشح عرقاً — ولم اكن متأكداً من انني لن أشمئز من جسمها ايضاً . ستبكي كونشا حين تعلم نبأ موتي ؛ وستفقد طوال أشهر طعم الحياة . غير اني كنت مع ذلك انا الذي سيموت . وفكرت بعينيها الرقيقتين . حين كانت تنظر إليّ ، كان شيء ما ينتقل منها إليّ . ولكني فكرت بان الأمر قد انتهى : فلو انها كانت تنظر إليّ « الآن » لبقي نظرها في عينيها ، ولما انتقل إليّ . كنت وحيداً .

وكان توم وحيداً كذلك ، ولكن لا بالطريقة نفسها . كان قد ركب المقعد الخشبي في جلسته وجعل ينظر اليه مبتسماً وعليه هيئة الدهشة . وقد مدّ يده ولمس الخشب في حذر ، كما لو انه كان يخشى ان يكسر شيئاً ما ، ثم سحب يده بحيوية وارتعش . ولو كنت انا نفسي توم ، لما تسلّيت بملامسة الخشب ؛ صحيح ان ذلك كان تمثيلاً من تمثيل الايرلنديين ، ولكني كنت أجد كذلك ان الاشياء كانت ذات هيئة غريبة : كانت اكثر امّحاءً ، وأقلّ كثافة من العادة . كان حسبي أن انظر الى المقعد ، والى المصباح ، والى كومة الفحم لأشعر اني مقدمٌ على الموت . وبالطبع لم أكن أستطيع ان اتصور صوتي بوضوح ، ولكني كنت أراه في كل مكان ، على الأشياء ، وفي الطريقة التي بها تقهقرت الأشياء ولبثت على مسافة ما ، بصورةٍ خفية ، كأشخاص يتكلمون بصوت منخفض أمام سرير انسان محتضر . إن الذي لمسه توم على المقعد ، إنما كان « موته » .

لو جاءوا يبلغونني ، وانا في تلك الحالة ، انه كان بوسعي ان أعود بهدوء الى بيتي ، وانهم يتركون لي حياتي سالمة ، لخلّفني ذلك في برود : إن بضع ساعات او بضع سنوات من الانتظار هي سواء ، حين يفقد المرء وهم انه أبديّ . انني لم أكن متشبثاً بعدُ بشيء ، على نحوٍ ما ، كنت هادئاً . ولكنه

كان هدوءاً فظيعاً – بسبب جسمي : جسمي الذي كنت أرى بعينيه ، وكنت أسمع بأذنيه ، ولكنه لم يكن بعدُ إيّاي ؛ كان يعرق ويرتجف وحده حتى انني كنت أنكره . كنت مضطراً الى ان ألمسه وان انظر إليه لأعرف كيف أصبح ، كما لو انه كان جسم إنسان آخر . كنت أحياناً أحسُّه بعد ، كنت أحسّ انزلاقات ، وضروباً من التدحرجات ، كما يحدث اذ يكون المرء في طائرة تهبط عمودياً ، او انني كنت أحسّ قلبي يخفق . ولكن ذلك لم يكن ليطمئنني ، إن كل ما كان يصدر عن جسمي كان ذا هيئة مشبوهة قذرة . كان معظم الوقت صامتاً ، هادئاً ، ولم اكن أحسّ بعدُ شيئاً ، الا نوعاً من الثقل ، حضوراً قذراً بازائي ؛ كان لديّ شعورٌ بأني مشدودٌ الى دودة هائلة . وقد لمست ذات مرة بنطالي ، فأحسست بأنه رطب ؛ ولم اعرف ان كان مبتلاً من العرق ام من البول ، ولكني ذهبت ابول على كومة الفحم ، على سبيل الاحتياط .

وسحب البلجيكي ساعته ونظر اليها وقال :

– انها الساعة الثالثة والنصف .

القذر الجبان ! إلا بدّ انه تقصّد ذلك تقصّداً . وقد قفز توم في الهواء : ذلك اننا لم نكن قد شعرنا بعد بأن الزمن يمرّ ؛ كان الليل يحيط بنا ككتلة شوهاء مظلمة ، بل أنا لم اكن اذكر انه كان قد بدأ .

وأخذ جوان الصغير يصرخ . كان يلوي يديه ويقول :

– لا اريد ان اموت . لا اريد ان أموت .

وركض عبر القبو كلّه ، وهو يرفع ذراعيه في الهواء ثم ارتمى على احدى فرشات القش وجعل يبكي . وكان توم ينظر اليه بعينين كئيبتين ولم تكن لديه بعدُ حتى الرغبة في تعزيته . والواقع ان الوضع لم يكن يقتضي منه هذا الجهد . كان الفتى يحدث من الضجة اكثر مما كنا نحدث ، ولكنه كان مصاباً أقلّ منا : كان يشبه مريضاً يدافع مرضه بالحمّى . وحين لا يكون بعدُ من حمّى ، فإن الأمر أخطر بكثير .

كان يبكي : وكنت ارى جيداً انه كان مشفقاً على نفسه ؛ إنه لم يكن يفكر بالموت . وأخذتني الرغبة ، مدة لحظة ، لحظة واحدة ، ان أبكي انا أيضاً ، أن أبكي شفقة عليّ . ولكن العكس هو الذي حدث : ألقيت نظرة عـــلى الصغير ، فرأيت كفيه الهزيلتين الباكيتين وأحسستني لاإنسانياً ، انني لم اكن أستطيع ن أشفق لا على الآخرين ولا على نفسي . وقلت لنفسي : « اريد ان أموت نظيفاً . »

كان توم قد نهض فوقف تحت الفتحة المستديرة وجعل يترقب النهار . اما أنا ، فقد كنت مصرّاً ، كنت أريد ان أموت نظيفاً ، ولم اكن افكر بغير هذا . ولكني كنت منذ ان قال لنا الطبيب الساعة أحسّ الزمن يجري من تحت ، يسيل نقطة نقطة .

وكانت السماء ما تزال مظلمة حين سمعت صوت توم :

ـ أتسمعهم ؟

ـ نعم .

كان ثمة أشخاص يمشون في الباحة .

ـ ماذا أتوا يفعلون ؟ إنهم لايستطيعون ان يطلقوا في الظلام .

وبعد لحظة لم نسمع شيئاً بعد . وقلت لتوم :

ـ هوذا النهار .

ونهض بدرو متثائباً وأقبل يطفيء المصباح ، وقال لرفيقه :

ـ ايّ برد هذا !

وكان القبو قد غدا رمادياً كلّه . وسمعنا طلقات نارية في البعيد . فقلت لتـــوم :

ـ لقد بدأوا . ولا بدّ أنهم يفعلون ذلك في الساحة الخلفية .

وسأل توم الطبيب ان يعطيه سيكارة . اما انا فلم اكن اريد سيكارة ولا مشروباً . ومنذ تلك اللحظة لم يكفّوا عن الإطلاق . وقال توم :

ـ هل انت مدرك ؟

وكان يريد ان يضيف شيئاً ، ولكنه صمت ، وكان ينظر الى الباب . وقد فُتح الباب ودخل ملازم بصحبة اربعة جنود . وترك توم سيكارته تسقط .

— ستينبوك ؟

فلم يجب توم . وكان بدرو هو الذي اومأ اليه .

— جوان ميربال ؟

— إنه ذاك الجالس على القشّ .

قال الملازم : — إنهض .

فلم يُبدِ جوان حراكاً ، فأخذه جنديّان من إبطيه واوقفاه على قدميه . ولكنهما ما ان تركاه حتّى سقط مرة اخرى . وتردّد الجنديّان ، فقال الملازم :

— ليس هو اول من عانى هذا ، فليس لكما الا ان تحملاه ، وسنتدبّر الأمر هناك .

والتفت الى توم فقال له :

— هيّا ، تعال .

فخرج توم بين جنديين ، وكان جنديان آخران يتبعانهم وهم يحملون الصغير من إبطيه وعرقوبيه . لم يكن مغمى عليه ، فقد كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما وكانت الدموع تسيل على خدّيه . وحين اردت ان أخرج ، أوقفني الملازم :

— أأنت ايبياتا ؟

— نعم .

— انتظر هنا : سوف يأتون لأخذك عما قليل .

وخرجوا . وخرج البلجيكي والسجّانان كذلك ، وبقيت وحدي . ولم أكن أفهم ما يجري لي ، ولكني كنت اوثر ان ينتهوا من الأمر على الفور . وكنت أسمع الإطلاق في فترات منتظمة تقريباً ، وكنت ارتجف لكلّ مجموعة من الطلقات . وكان بودي ان أصرخ وان انتزع شعري . ولكني كنت اكزّ على أسناني وأدسّ يديّ في جيوبي لأني كنت اريد ان أبقى نظيفاً .

وبعد انقضاء ساعة جاءوا يأخذونني فقادوني الى الطابق الأول ، الى غرفة صغيرة كانت تنبعث منها رائحة السيكار ، وبدت حرارتها لي خانقة . كان هناك ضابطان يدخّنان وهما جالسان على أريكتين وعلى ركبتيهما اوراق .

— هل تُدعى ايبياتا ؟

— نعم .

— اين رامون غري ؟

— لا أدري .

وكان الذي يسألني قصيراً وسميناً . وكانت له خلف نظارتيه عينان قاسيتان . وقد قال لي :

— اقترب .

فاقتربت . فنهض وأخذني من ذراعي وهو ينظر إلي نظرة مرعبة . وفي الوقت نفسه كان يقرص عضلاتي بكل قواه . ولم يكن قصده ان يوجعني ، وإنما كانت تلك اللعبة الكبرى : كان يريد ان يستولي عليّ . وكان يرى من الضروري كذلك ان يُرسل انفاسه المتعفّنة في وجهي . وقد بقينا هكذا لحظات ، وكان ذلك يوحي لي بالاحرى رغبةً في الضحك . إن ارهاب انسان موشك على الموت يقتضي اكثر من هذا بكثير : فذلك لم يكن ليؤثر . وقد دفعني بعنف ثم جلس وقال :

— إن حياتك مقابل حياته . فسوف تُنقذ حياتك اذا قلت لنا اين هو .

هذان الشخصان المبهرجان بسوطيهما وحذائيهما الطويلين كانا رغم كل شيء رجلين سيموتان . بعد موتي بقليل ، لا اكثر من ذلك . وقد كانا منشغلين بالبحث عن أسماء في اوراقهما ، وكانا يركضان خلف رجال آخرين ليسجنوهم او يعدموهم ، وكانت لهما آراء عن مستقبل اسبانيا وعن موضوعات أخرى . وكانت نشاطاتهما الصغيرة تبدو لي مزعجة ومضحكة لغلاظتها : كنت لا أستطيع بعدُ ان أضع نفسي مكانهما ، فقد كان يخيّل إليّ انهما كانا مجنونين .

كان القصير السمين ما يزال ينظر إليّ وهو يصفع حذاءه الطويل بسوطه . وكانت جميع حركاته مصمّمة على ان تكسبه هيئة حيوان حيّ ومفترس .

ــ وإذن ؟ هل هذا مفهوم ؟

فأجبت :

ــ لا أعرف اين هو غري . كنت أظنّ انه كان في مدريد .

ورفع الضابط الآخر يده الصفراء في تثاقل . وهذا التثاقل كان ايضاً مصمّماً . كنت ارى وادرك جميع لُعَبهما ، وكنتمبهوتاً ان يكون ثمة رجال يتسلّون بهذا . وقال في هدوء :

ــ إن امامك ربع ساعة للتفكير . خذوه الى غرفة الغسيل ، ثم أعيدوه بعد ربع ساعة . فاذا أصرّ على الرفض ، فسوف يُعدم فوراً .

كانا يعرفان ما يفعلانه : فقد كنت قضيت الليل في الانتظار ، وبعد ذلك جعلاني انتظر كذلك ساعة في القبو ، بينما كان الرصاص يُطلق على توم وجوان ، وها هما الآن يحبسانني في غرفة الغسيل ، ولا بدّ أنهما قد أعدّا فعلتهما منذ الأمس . كانا يقولان لنفسيهما إن الأعصاب تتلف مع مرور الوقت وكانا يأملان ان يتغلّبا عليّ بهذه الطريقة .

ولكنهما كانا مخطئين . وقد جلست في غرفة الغسيل على كرسيّ صغير لأني كنت أحسّني ضعيفاً جداً ، وأخذت أفكّر . ولكن ليس بالعرض الذي قدّماه . كنت بالطبع أعرف اين كان غري ، كان مختبئاً عند اقاربه ، على بعد اربعة كيلومترات من المدينة . وكنت اعرف كذلك اني لن اكشف عن مخبأه ، إلاّ اذا عذّباني (ولكن لم يكن يبدو عليهما انهما يفكران بذلك) . كان ذلك كلّه مبتوتاً فيه نهائياً ، ولم يكن يهمّني قط . على اني كنت أودّ لو أفهم أسباب تصرّفي . كنت اوثر ان اموت على ان أسلّم غري . لماذا ؟ كنت قد كففت عن حبّ رامون غري . كانت صداقتي له قد ماتت قبل الفجر بقليل ، في الوقت نفسه الذي مات فيه حبّي لكونشا ، وفي الوقت نفسه الذي ماتت فيه رغبتي في الحياة . لا شك في اني كنت ما ازال أحترمه ، فقد كان رجلاً صلباً .

ولكن لم يكن ذلك هو السبب الذي كنت من أجله أقبل أن اموت بدلاً منه ؛ فانه لم يكن لحياته من القيمة بعدُ اكثر مما كان لحياتي ؛ لم يكن لأية حياة قيمة. سوف يُسند رجلٌ الى جدار ، وسيُطلق الرصاص عليه حتى يموت : أكان هذا الرجل انا ام كان غري ام كان آخر ، فالأمر سواء . صحيح اني كنت أعرف انه كان أنفع مني لقضية اسبانيا ، ولكني كنت لا اكترث باسبانيا وبالنظام الفوضوي : لم يكن ثمة أهمية لشيء بعد . ومع ذلك ، فقد كنت هنا ، وكان بامكاني ان أنقذ جلدي بتسليم غري ، وكنت ارفض ذلك . كنت أجد هذا اقرب الى ان يكون هزلياً : فقد كان ذلك من قبيل العناد . وفكرت :

– هل ينبغي للمرء ان يكون عنيداً ؟

وغمرني شعورٌ غريب من الجذل .

واقبلا يأخذانني ويقتادانني الى الضابطين . وانطلق جرذ تحت اقدامنا فتسليت برؤيته . والتفتّ نحو أحد الكتائبيين وقلت له :

– هل رأيت الجرذ ؟

فلم يجب . كان مقطّباً يأخذ نفسه بمأخذ الجدّ . اما انا ، فكانت بي رغبةٌ في الضحك ، ولكني كنت أتمالك نفسي لأني كنت أخشى ، اذا بدأت ، ألاّ أتمكن بعدُ من التوقّف . وكان للكتائبيّ شاربان ، وقد قلت له ايضاً :

– يجب ان تقصّ شاربيك ، ايها الثقيل .

كنت أجد غريباً ان يترك لشعره ، في حياته ، ان يكتسح وجهه . وقد ركلني بقدمه من غير اقتناع كبير ، فصمتّ .

وقال الضابط السمين :

– وإذن ، هل فكّرت ؟

كنت أنظر اليهما في فضول ، كأنهما حشرتان من نوع نادر جداً . وقلت لهما :

– اني أعرف اين هو . انه مختبىء في المقبرة . في قبو صغير او في كوخ

والحفّارين .

وكانت تلك أكذوبة . كنت اريد ان أراهما ينهضان فيربطان حزاميهما يعطيان اوامر بلهجة اهتمام .

وقد قفزا على قدميهما ، وقال القصير السمين :

– هيّا بنا . اذهب يا مول فاطلب خمسة عشر رجلاً من الملازم لوبيز . واما انت (والتفت إليّ) فليس لديّ الا كلمة واحدة ، اذا قلت الحقيقة . اما اذا سخرت منا ، فستدفع الثمن غالياً .

وانطلقا في صخب وأخذت أنتظر في سكون تحت حراسة الكتائبيين . وكنت ابتسم بين الفينة والفينة لأني كنت أتمثّل الهيئة التي ستكسو وجهيهما : كنت أحسّني مخبّلاً وخبيثاً . وتصورّتهم يرفعون احجار المقبرة ويفتحون ابواب الاقبية واحداً واحداً . كنت أتمثّل الموقف كما لو اني كنت شخصاً آخر : هذا السجين الذي يصر على ان يظهر بمظهر الأبطال ، واولئك الكتائبيون الرصينون بشواربهم ، وهؤلاء الرجال العسكريون الذين يركضون بين القبور ، كان ذلك مشهداً لا يمكن مقاومة ما يثيره من ضحك .

وبعد نصف ساعة ، عاد القصير السمين وحده . وفكرت بأنه قادم ليعطي امر تنفيذ الاعدام بي . اما الآخرون ، فلا بدّ انهم باقون في المقبرة .

ونظر إليّ الضابط ، من غير ان يبدو عليه اي مظهر للارتباك ، وقال :

– خذوه مع الآخرين الى الساحة الكبيرة . إن محكمة عادية ستقرّر مصيره بعد نهاية العمليات العسكرية .

وحسبت اني لم أفهم . فسألته :

– اني إذن لن... لن أعدم ؟

– ليس الآن على كل حال . اما فيما بعد ، فذلك لا يعنيني .

وظللت غير فاهم ، فقلت له :

– ولكن لماذا ؟

فهزّ كتفيه من غير ان يجيب ، واقتادني الجنود .

وكان في الساحة الكبيرة زهاء مئة سجين ، بينهم نساء وأطفال وبعض الشيوخ . وأخذت ادور حول الحديقة الوسطى الخضراء ، وانا شبه مخبول . وقدّموا لنا الطعام ظهراً في قاعة الأكل . وقد ناداني شخصان او ثلاثة لا أني كنت أعرفهم ، ولكني لم أجبهم : انني لم اكن اعرف بعدُ حتى اين كنت .

وحوالى الظهر دفعوا الى الساحة بما يقارب عشرة معتقلين آخرين . وعرفت بينهم غارسيا الخبّاز ، فقال لي :

– ايها المحظوظ الملعون ! لم اكن أظن ان اراك ثانية على قيد الحياة .

قلت : – كانوا قد حكموا عليّ بالموت ، ثم غيّروا رأيهم ، لا أدري لمـــاذا .

قال غارسيا : – لقد اوقفوني عند الساعة الثانية .

– لمـــاذا ؟

لم يكن غارسيا يتعاطى السياسة . وقال :

– لا أدري . انهم يعتقلون كل من لا يفكر مثلهم .

وخفض صوته :

– لقد قبضوا على غري .

فأخذت أرتجف :

– متى ؟

– هذا الصباح . لقد كان حماراً . لقد ترك ابن عمه يوم الثلاثاء لأنهم بلغتهم عنه كلمات . وهو لم يكن يعدم أشخاصاً كانوا مستعدّين لإخفائه ، ولكنه كان يريد ألاّ يكون مديناً لأحد بعد . وقد قال : «كان بودّي ان أختبيء في بيت إيبياتا ، ولكن ما داموا قد قبضوا عليه ، فسأذهب لأختبيء في المقبرة . »

– في المقبرة ؟

– نعم . كانت تلك حماقة . ولقد مرّوا بالمقبرة طبعاً ، هذا الصباح ،

وكان هذا متوقعاً . وعثروا عليه في كوخ الحفّارين . وقد أطلق عليهم الرصاص فأجابوه بالمثل وأردوه قتيلاً .

– في المقبرة !

وأخذ كل شيء يدور ، ووجدتني جالساً على الأرض : كنت أضحك بشدّة ، حتى ان الدموع طفرت الى عينيّ .

ایروشترات

الناس ، يجب ان ينظر اليهم من فوق . كنت اطفيء النور وأجلس الى النافذة ، فلا يخطر في بالهم أنّ بالامكان مراقبتهم من عل . إنّهم يُعنون بالواجهة ، واحياناً بالمؤخّرات ، ولكنّ جميع تأثيراتهم مصنوعةٌ لمشاهدين يبلغ طولهم متراً وسبعين . فمنذا الذي فكّر يوماً بشكل قبعة من طراز البطيخ الأصفر اذا ما نُظرت من طابقٍ سادس ؟ انهم يهملون الدفاع عن اكتافهم ورؤوسهم بألوان فاقعة وأقمشة لمّاعة ، وهم لا يحسنون محاربة هذا العدو الكبير للبشري : المنظور الغاطس . كنت أُطلّ وكنت آخذ في الضحك : اين تراها كانت إذن ، تلك « المحطة الواقفة » العظيمة التي كانوا يعتزّون بها هذا الاعتزاز كلّه : كانوا ينسحقون بالرصيف ، وكانت ساقان طويلتان نصف زاحفتين تخرجان من تحت أكتافهم .

على شرفة طابق سادس : كان عليّ ان اقضي كلّ حياتي هناك . يجب ان تُدعم ضروب التفوق المعنوي برموز مادية ، وإلاّ سقطت . وما هو ، بالفعل ، تفوّقي على الناس ؟ إنه تفوّق في المكان ، ليس غير : لقد وقفت فوق البشري الذي فيّ وأخذت أتأمّله . من أجل هذا احبّ ابراج نوتردام ، وسطيحات برج ايفل ، وكنيسة الساكريه‌كور ، وطابقي السادس في شارع دولامبر . إنها رموز ممتازة .

يجب على المرء احياناً ان يهبط الى الشارع . ليذهب الى المكتب مثلاً . كنت أختنق . حين يكون المرء غارقاً في خضمّ البشر ، فمن الأصعب جداً ان يعتبرهم كالنمل : انهم **يُلمسون** . حدث مرة ان رأيت شخصاً ميتاً في الشارع . كان قد سقط على انفه ، وحين قلبوه ، كان ينزف دماً . وقد رأيت عينيه

المفتوحتين وهيئته العكرة ، وهذا الدم كله . وكنت اقول لنفسي : « ليس هذا بذي بال ، فهو ليس أشد تأثيراً من الدهان الطريّ . كل ما في الأمر أن أنفه قد طُلي بالأحمر . » ولكني أحسست بعذوبة قذرة تنتابني في ساقيّ وفي رقبتي ، فأغمي عليّ . وقد حملوني الى صيدلية ، ووجّهوا صفعات الى كتفيّ ، وسقوني كحولاً . ولو كنت في وعيي لقتلتهم .

كنت أعرف انهم كانوا أعدائي ، ولكنهم هم لم يكونوا يعرفون ذلك . كانوا يتبادلون الحبّ ويتكاتفون بالمرافق ؛ ولو كنت انا معهم لساعدوني هنا وهناك ، لأنهم يظنونني شبيهاً بهم . ولكن لو اتيح لهم ان يحدسوا بأدنى جزء من الحقيقة لقتلوني . والواقع انهم فعلوا ذلك فيما بعد . فانهم حين قبضوا عليّ وعرفوا من أنا ، أخذوا يضربونني طوال ساعتين ، وفي مفوضية الشرطة كالوا لي الصفعات واللكمات ، ولووا ذراعيّ ، وانتزعوا بنطالي ، ثم رموا بنظارتيّ ارضاً ؛ وفيما كنت ابحث عنهما ، وانا مُقعٍ على أربع ، كانوا يرسلون ركلاتهم في مؤخرتي . وقد تنبّأت دائماً بأن الأمر سينتهي بهم الى قتلي : فانا لست قوياً ولا استطيع ان ادافع عن نفسي . وقد كان هناك من يكمن لي منذ وقت طويل : الكبار . كانوا يدفعونني في الشوارع ، ليضحكوا ، وليروا ما الذي سأفعله . ولم أكن أقول شيئاً . كنت أتظاهر بأنني لم أفهم . ومع ذلك ، فقد انتصروا عليّ . كنت أخشاهم : وكان ذلك ارهاصاً . ولكنكم تدركون انه كانت لدي أسبابٌ اكثر وجاهة تحملني على كرههم .

ومن هذه الناحية ، مضى كلّ شيء بطريقة أفضل جداً منذ اليوم الذي اشتريت فيه مسدساً . إن من يحمل أحد هذه الأشياء التي يمكن ان تنفجر وتحدث ضجة يشعر بأنه قوي . وكنت آخذه يوم الأحد ، وأضعه بكل بساطة في جيب بنطالي ، ثم أذهب للتنزّه — على الطرقات إجمالاً . وكنت أحسّه يضغط على بنطالي كالعقرب ، وكنت أشعر به عند فخذي بارداً . ولكنه كان يدفأ رويداً رويداً لاتصاله بجسمي . كنت أسير في شيء من التصلّب وكنت أدسّ يدي في جيبي وأجسّ الشيء . وكنت بين الحين والحين ادخل مبولة — وحتى

في هذا المكان كنت أتنبّه جيداً لأن المرء يجد غالباً بعض الجيران ـ فأخرج مسدّسي، وأزِنُه، وأنظر الى خشبته ذات المربّعات السود والى زناده الأسود الذي يشبه جفناً نصف مغلق. وكان الآخرون الذين يرون، من الخارج، قدميّ المتباعدتين وأسفل بنطالي، يحسبون اني كنت أبول. ولكني لا ابول قط في المباول.

وخطر في بالي ذات مساء ان اطلق الرصاص على أناس ما. وكان ذلك مساء يوم سبت، وكنت قد خرجت لاصطحب «ليا»، وهي شقراء تذرع الرصيف امام فندق بشارع مونبارناس. وانا لم أعقد قطّ علاقة حميمة مع امرأة: ولو فعلت لأحسست اني مسروق. صحيح اننا نعتليهنّ، ولكنهنّ يلتهمن اسفل البطن بأفواههن الكبيرة المُشعرة، وهنّ اللواتي يربحن في هذه المبادلة، على ما سمعت. اما انا، فلا أطلب شيئاً من أحد، ولكني لا اريد ان اعطي شيئاً كذلك. إلاّ ان تكون امرأة باردة تقيّة تحتملني في اشمئزاز. وقد كنت، في اول سبت من كل شهر، أصعد مع ليا الى غرفة في فندق دوكين. فكانت تنزع ثيابها، وكنت أنظر اليها من غير ان ألمسها. واحياناً كان ينطلق من تلقاء نفسه في بنطالي، واحياناً اخرى، كنت اجد متسعاً من الوقت للعودة الى بيتي حيث أنجز العمل. وفي ذلك المساء، لم أجدها في مكان عملها. فانتظرت فترة، واذ لم أرها، افترضت انها مريضة. كان الوقت مطلع كانون الثاني، وكان الطقس بارداً جداً، وكنت حزيناً: فأنا انسان تخيّلي، وكنت قد تمثّلت بحماسة المتعة التي كنت انوي ان أنعم بها من تلك الأمسية. وكان ثمة في شارع اوديسا سمراء سبق لي مراراً ان لاحظتها، وهي ناضجة بعض الشيء، ولكنها صلبةٌ وسمينة: انني لا احتقر النساء الناضجات، فانهن حين ينزعن ثيابهن يبدون أشد عرياً من الاخريات. ولكنها لم تكن تعرف هواياتي، وكنت أخشى قليلاً أن أعرض عليها ذلك بلا مقدمات. ثم انني أحذر من التعرّف على نساء جديدات: فان هؤلاء النسوة قد يخفين رجل سوء وراء أحد الأبواب، يُقبل بعد قليل فيسلبك مالك. وستكون سعيداً

جداً اذا لم يوجه لك بعض اللكمات . على انني كنت أملك ، ذلك المساء ، جرأة لا أدري مصدرها ، فقرّرت ان أمرّ بالبيت فآخذ مسدّسي وأخوض في المغامرة .

حين حاذيت المرأة ، بعد ربع ساعة ، كان سلاحي في جيبي ، ولم اكن أخشى بعدُ شيئاً . كانت توحي الى من ينظر اليها عن كثب بأنها أقرب الى البؤس . كانت تشبه جارتي الساكنة قبالتي ، امرأة نائب الضابط ، وقد سرّني ذلك كثيراً لأنه مضى عليّ وقت طويل وانا أشتهي ان ارى هذه عارية . كانت تلبس ثيابها والنافذة مفتوحة ، إذ يكون نائب الضابط غائباً ، وكنت غالباً ما أبقى خلف ستار نافذتي لأباغتها . ولكنها كانت تقوم بزينتها في جوف الغرفـــة .

لم يكن باقياً في فندق ستيلا الا غرفة واحدة شاغرة ، في الطابق الرابع . أفصعدنا اليها . كانت المرأة ثقيلة بما فيه الكفاية ، وكانت تتوقف عند كل درجة ، لتلهث قليلاً . وكنت مرتاحاً كل الراحة : إن لي جسماً جافاً ، رغم كرشي ، وانا بحاجة الى اكثر من أربعة طوابق لكي أفقد نفَسي . وتوقفتْ عند سطيحة الرابع فوضعت يدها اليمنى على قلبها وهي تتنفس بقوة . وكانت تمسك بيدها اليسرى مفتاح الغرفة ؛ وقالت وهي تحاول ان تبسم لي :

ــ انها عالية .

فأخذت منها المفتاح من غير ان أجيب وفتحت الباب . وكنت امسك مسدسي بيدي اليسرى مصوّباً أمامي باستقامة عبر الجيب ، ولم أتركه الا بعد أن أدرت مفتاح الضوء . كانت الغرفة خالية . وكانوا قد وضعوا على المغسلة مربّعاً من الصابون الأخضر ، للحاجة. وابتسمت : معي انا ، لا شأن للمغاسل ولا لمربّعات الصابون . وكانت المرأة ما تزال تلهث خلفي ، وكان هذا يثيرني . والتفتّ ، فمدّت لي شفتيها ، فدفعتها ، وقلت لها :

ــ إخلعي ثيابك .

كان ثمة أريكة مطرزة ، فجلست عليها باسترخاء . انني في مثل هذه

الحالات آسف على عدم التدخين . ونزعت المرأة ثوبها ثم توقفت وهي ترميني بنظرة حذرة . فقلت لها وانا أنقلب الى خلف :

– ما اسمك ؟

– رينيه .

– حسناً ، عجّلي يا رينيه . انني أنتظر .

– ألا تخلع ثيابك ؟

فقلت لها : هيّا ، هيّا ، لا تهتمي بي .

فأسقطت سروالها الى قدميها ثم تناولته ووضعته بعناية على ثوبها ورافعة نهديها .

وسألتني : – انت إذن داعرٌ صغير ، يا حبيبي ، كسولٌ صغير؟ أتريد ان تقوم امرأتك الصغيرة بالعمل كله ؟

وفي الوقت نفسه خطت خطوة نحوي ، فاستندت بيديها على مرفقي أريكتي . ولكني أنهضتها في خشونة ، وقلت لها :

– لا اريد هذا ، لا اريد هذا .

فنظرت إليّ في دهشة :

– ولكن ما تريد ان افعل لك ؟

– لا شيء . إمشي ، تنزّهي ، لا اريد اكثر من هذا .

فأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، بهيئة خرقاء ، ليس من شيء يزعج النساء كأن يمشين وهنّ عاريات . إنهنّ لم يتعوّدن ان يضعن أعقابهن مسطّحة . كانت البغيّ تقوّس ظهرها وتدلّي ذراعيها . أما انا فقد كنت مسحوراً : كنت جالساً هناك في الأريكة مطمئناً ، مرتدياً كامل ثيابي ، بل محتفظاً حتى بقفازي ، بينما كانت تلك المرأة الناضجة قد تعرّت كلّيا نزولاً عند امري ، وكانت تدور حولي .

وأدارت رأسها نحوي ، وانقاذا للمظاهر ، بسمت لي بدلال :

– انك تجدني جميلة ؟ هل تمرّن عينيك ؟
– لا تهتمي بذلك .
فقالت لي بحنق مفاجيء :
– ولكن قلْ لي : هل تنوي أن تجعلني أمشي هكذا وقتاً طويلاً ؟
– إجلسي .
فجلست على السرير وأخذنا نتبادل النظر في صمت . كان شعرها قد قفّ من البرد ، وكانت تُسمع تكتكة منبّه ، فيما وراء الجدار . وقلت لها فجأة :
– افتحي ساقيك .
فتردّدت ربع لحظة ثم أطاعت ، فنظرت بين ساقيها ونشقت . ثم أخذت أضحك ضحكاً شديداً حتى طفرت الدموع الى عينيّ . وقلت لها ببساطة :
– هل تدركين ؟
ثم عدت الى الضحك .
نظرت إليّ في ذهول ثم احمرّت بعنف وأطبقت ساقيها ، وتمتمت بين اسنانها :
– جبان قذر !
ولكني مضيت في ضحكي ، فنهضت بقفزة واحدة وتناولت رافعة نهديها عن الكرسيّ ، فقلت لها :
– هيه ! اسمعي . لم ننته بعد . سأعطيك خمسين فرنكاً عما قليل ، ولكني اريد مقابلاً لها .
فأخذت سروالها بعصبية :
– كفاني ، كفاني . هل تسمع ؟ انني لا أعرف ماذا تريد . اما اذا كنت قد أصعدتني الى هنا لتسخر مني ...
وإذ ذاك أخرجت مسدسي وأريتها إياه . فنظرت إليّ بهيئة جدّ وتركت

سروالها يسقط من غير ان تقول شيئاً . وقلت لها :
– إمشي ، تنزّهي .
وتنزّهت خمس دقائق اخرى . ثم أعطيتها عصاي وحملتها على ان تفعل التمرين . وحين أحسست بأن سروالي قد تبلل ، نهضت ومددت لها ورقة من فئة الخمسين فرنكاً ، فأخذتها . وأضفت :
– الى اللقاء . انني لم أتعبك كثيراً مقابل الأجرة .
وخرجت ، تاركاً إياها عارية تماماً وسط الغرفة ، رافعة نهديها بيد ، وورقة الخمسين فرنكاً بالأخرى . ولم أكن آسفاً على دراهمي : لقد أرعبتها ، والبغيّ لا تندهش بسهولة . وفكرت وانا أهبط السلّم : « هذا ما أتمنّاه : أن أدهشهم جميعاً » وكنت فرحاً كالطفل . وكنت قد أخذت الصابونة الخضراء وعُدت الى بيتي ، ففركتها طويلاً تحت الماء الساخن حتى غدت قشرة دقيقة بين أصابعي تشبه حبّة ملبّس بالنعناع قد مُصّت طويلاً .
ولكني استيقظت في الليل منتفضاً وأنا أتمثّل وجهها ، وعينيها حين أريتها مسدسي ، وبطنها السمين الذي كان يقفز لكل خطوة تخطوها .
قلت لنفسي : « ما كان أشدّ بلاهتي ! » وأحسست بندم مرّ : كان علي ان أطلق الرصاص وانا في ذلك الوضع ، وان أثقب ذلك البطن كالمرغاة . وفي تلك الليلة والليالي الثلاث التالية حلمت بستة ثقوب صغيرة حمراء متجمّعة في دائرة حول السُرّة .

وبعد ذلك اليوم لم أخرج قط الا بصحبة مسدسي . كنت أنظر الى ظهور الناس وأتصوّر ، من مشيتهم ، كيف سيسقطون اذا أطلقت عليهم النار . واعتدت ان أذهب يوم الأحد فأتمركز أمام « الشاتليه » عند خروج الناس من حفلات الموسيقى الكلاسيكية . وكنت أسمع حوالي الساعة السادسة صوت جرس ، وكانت العاملات يأتين فيفتحن الابواب ، وتكون تلك البداءة : كان الجمهور يخرج على مهل ، وكان الناس يسيرون بخطوة عائمة ، ما تزال عيونهم ملأى بالحلم ، وقلوبهم ملآى بالعواطف الجميلة . وإن فيهم كثيرين

ينظرون حولهم بهيئة اندهاش : لا بدّ ان الشارع يبدو لهم ازرق كل الزرقة . واذ ذاك كانوا يبتسمون بغموض : كانوا ينتقلون من عالم الى آخر . اما انا ، فقد كنت انتظرهم في الآخر . كنت قد دسست يدي اليمنى في جيبي ، وكنت أشدّ بكل قواي قبضة سلاحي . وكنت بعد لحظة أراني وانا أطلق عليهم ، فأدحرجهم كأنهم براميل ، وكانوا يتساقطون بعضهم فوق بعض ؛ اما الذين يظلّون منهم أحياء فكانوا يرتدّون مذعورين الى المسرح وهم يحطمون زجاج الأبواب . كانت تلك لعبةً مثيرة جداً للأعصاب : كانت يداي ترتجفان ، في آخر المطاف ، وكنت مضطراً الى ان اذهب فأشرب قدح كونياك عند « دريهر » لأستردّ شجاعتي .

اما النساء ، فما كنت لأقتلهنّ ، وانما كنت لاطلق الرصاص على أجنابهنّ او على مآبضهنّ لأجعلهنّ يرقصن .

ولم اكن قد قررت شيئاً بعد . ولكني عزمت على ان افعل كل شيء كما لو أنّ قراري قد اتُخذ . وقد بدأت بتدبير التفاصيل الاضافية ، فذهبت اتدرّب في ساحة بمعرض دانفير روشيرو . ولم يكن خرطوشي عظيماً ، ولكن الناس كانوا يشكّلون مرامي عريضة ، لا سيما حين يطلق المرء عن قرب شديد .

ثم اهتممت بعد ذلك بعلاقاتي العامة ، فاخترت يوماً كان جميع زملائي مجتمعين فيه بالمكتب . صباح يوم اثنين . وقد كنت لطيفاً معهم غاية اللطف ، بصورة مبدئية ، بالرغم من اني كنت أشمئز من مصافحتهم . كانوا ينزعون قفازاتهم ليحيّوا ، كانت لهم طريقة داعرة بتعرية ايديهم ؛ بتخفيض قفازاتهم وبجعلها تنزلق بهدوء عن الأصابع كاشفةً عري الراحة السمين المدعوك . اما انا ، فقد كنت احتفظ دائماً بقفازي .

لم نكن نعمل شيئاً ذا بال صباح الاثنين . وكانت الضاربة على الآلة في القسم التجاري قد حملت لنا الإيصالات ، فمازحها لومرسيه بلطف ، وحين خرجت ، أخذوا يفصّلون مزايا جمالها باختصاص ضجر . ثم تكلموا عن

لندبرغ ، كانوا يحبون كثيراً لندبرغ . وقد قلت لهم :
– اما انا فأحب الابطال السود .
فسأل ماسيه : – تعني الزنوج ؟
– لا ، اقصد بالسود ما نقصده حين نقول « سحر أسود » . إن لندبرغ بطلٌ ابيض . فهو لا يثير اهتمامي .
قال بوكسين بحموضة :
– اذهب فانظر اذا كان اجتياز الأطلنطيك امراً يسيراً .
وشرحت لهم نظريتي في البطل الأسود ، ولخّصها لومرسيه بقوله :
– إنه فوضوي .
فقلت على مهل : – كلا . إن الفوضويين يحبّون الناس على طريقتهم .
– إنه إذن الانسان المطارَد .
ولكن ماسيه تدخّل في تلك اللحظة ، فقال لي :
– إنني اعرفه ، نموذجك . هو يدعى ايروستّرات . كان يريد ان يصبح مشهوراً فلم يجد خيراً من ان يحرق معبد ايفيز ، احدى عجائب العالم السبع .
– وماذا كان يُدعى مهندس ذلك المعبد ؟
فاعترف بقوله : – لست اذكر بعد . بل أحسب ان اسمه غير معروف .
– حقاً ؟ وتتذكر اسم ايروستّرات ؟ انك ترى انه لم يقم بحساب رديء الى حد بعيد .

وانتهت المحادثة عند هذه الكلمات ، ولكني كنت هادئاً جداً ؛ انهم سيذكرونها في اللحظة المناسبة . اما انا الذي لم اكن قد سمعت حتى الآن عمن يتحدث عن ايروستّرات ، فان قصته قد شجعتني . لقد مضى على موته اكثر من ألفي عام ، وما زال عمله يلتمع ، كاللؤلؤة السوداء . وقد بدأت أعتقد أن قدَري سيكون قصيراً وفاجعاً . وقد أخافني ذلك اول الأمر ، ثم تعوّدته . صحيح أنّ ذلك شديد القسوة ، اذا واجهناه من ناحية ما ، ولكنه من ناحية اخرى يمنح اللحظة التي تمر قوة وجمالاً عظيمين . حين كنت أهبط الشارع ،

كنت أحسّ في جسمي قدرة عجيبة . كان في جيبي مسدسي ، ذلك الشيء الذي ينفجر ويحدث ضجة . غير اني لم أكن أستمد منه بعد ثقتي وطمأنينتي ، وانما كنت أستمدّها مني : كنت كائناً من نوع المسدسات والمفرقعات والقنابل . سوف انفجر انا ايضاً ، عند نهاية حياتي المظلمة ، وسأضيء العالم بأشعة عنيفة وقصيرة كالتماع المانيزيوم . وقد اتفق لي ، حوالي هذه الفترة ، ان حلمت لبضع ليالٍ متوالية بالحلم نفسه . كنت فوضوياً ، وكنت واقفاً في الطريق الذي يمرّ به القيصر ، وكنت أحمل آلة جهنمية . وفي الساعة المعينة ، كان الموكب يمرّ ، والقنبلة تنفجر فتتطاير في الهواء ، وانا والقيصر والضباط الثلاثة المزدانون بالذهب ، تحت انظار الجمهور .

وكنت أمكث الآن أسابيع طويلة من غير ان أظهر في المكتب . كنت أتنزه في الشوارع ، وسط ضحاياي المقبلة ، او كنت احتبس في غرفتي وارسم المخططات . وقد طُردت في مطلع اكتوبر ، فقضيت أوقات فراغي في كتابة الرسالة التالية التي نقلت منها مئة ونسختين :

« سيدي .

« انت مشهور ، ومؤلفاتك يطبع منها ثلاثون الف نسخة . سأقول لك لماذا : ذلك انك تحب البشر . إن نزعتك الانسانية مزروعة في دمك : فأي حظ هذا ! إنك تتفتّح حين تكون برفقة الناس ؛ فيكفي أن ترى أحد أشباهك حتى من غير ان تعرفه ، لتحسّ نحوه بالودّ . إن لك ميلاً نحو جسمه ، ونحو الطريقة التي صُنع بها ، ونحو ساقيه اللتين تنفرجان وتنغلقان طوع ارادته ، ونحو يديه خصوصاً : انه يروق لك ان يكون لكل يد من يديه خمسة أصابع وان يستطيع معارضة ابهامه بسائر أصابعه . انك تتلذّذ حين يأخذ جارك فنجاناً من على الطاولة ، لأن هناك طريقة للأخذ هي طريقة انسانية خاصة سبق لك مراراً أن وصفتها في مؤلفاتك ؛ وصحيح انها اقل مرونة واقل سرعة من طريقة القرد ، ولكنها اكثر ذكاء بما لا يُقاس ، أليس كذلك ؟ وانت

تحب ايضاً لحم الانسان ، ومشيته الشبيهة بمشية الجريح الذي يُعاد تمرينه ، وهيئته بأن يخترع من جديد طريقة المشي في كل خطوة ، ونظرته العظيمة التي لا تستطيع الحيوانات الشقر ان تحتملها . وإذن ، فقد كان يسيراً عليك ان تعثر على اللهجة المناسبة لتحدث الانسان عن نفسه : لهجة محتشمة ، ولكنها مولّهة . إن الناس يرتمون على كتبك في نهم ، ويقرأونها وهم جالسون في اريكة مريحة ، ويفكرون في الحب الكبير الشقيّ المتحفّظ الذي تحمله لهم ، وهذا يعزّيهم عن أشياء كثيرة ، عن ان يكون بعضهم بشعين ، او قذرين جبناء ، او ان تخونهم زوجاتهم ، او ألاّ يتلقّوا زيادة الراتب في اول يناير . ويقال عن هوايتك الأخيرة في رضى : انها عملٌ طيّب .

« وافترض ان الفضول يأخذك لمعرفة ما عساه يكون إنسانٌ لا يحب البشر . الحق اني إيّاه ، وقد بلغ من قلة حبّي لهم اني قادمٌ عما قليل على قتل نصف دزينة منهم . وربما كنت تتساءل : ولماذا نصف دزينة فقط ؟ لأن مسدسي لا يحوي إلا ست رصاصات . هذه فظاعة ، أليس كذلك ؟ ثم هي بالاضافة الى ذلك عملٌ غير سياسي تماماً ؟ ولكني اقول لك اني لا أستطيع ان أحبّهم . انني أفهم جيداً ما تشعر به . ولكنّ ما يجذبك فيهم ينفرّني . لقد رأيت مثلك اناساً يعلكون في إيقاع محتفظين بعيونهم سديدة ، او مقلبّين باليد اليسرى صفحات مجلة اقتصادية . ايكون الذنب ذنبي اذا كنت اوثر ان أحضر طعام الفقمة ؟ إن الانسان لا يستطيع ان يأتي حركة في وجهه الا وتدخل في لعبة الفراسة . فهو حين يمضغ محتفظا بفمه مغلقاً ، بحيث تصعد زاويتا فمه وتهبط ، يبدو وكأنه ينتقل بلا هوادة من الصفاء الى المفاجأة الباكية . أنا أعلم انك تحب ذلك ، وتسمّيه يقظة « الروح » . اما أنا ، فان هذا يثير اشمئزازي : لا ادري لماذا ، ولكني هكذا خلقت .

« لو لم يكن بيننا الا فرق في الذوق والحسّ ، لما كنت أزعجك . ولكن كل شيء يجري كما لو انك كنت تملك النعمة وانا لا أملكها . انا

حرّ في ان احب او لا احبّ سرطان البحر مطبوخاً على الطريقة الاميركية ، ولكني اذا لم احبّ البشر ، فاني بائس ، ولا أستطيع ان أجد مكاناً تحت الشمس . لقد احتكروا معنى الحياة . وآمل ان تفهم ما أعنيه . لقد انقضى عليّ ثلاثة وثلاثون عاماً وانا اصطدم بأبواب موصدة كُتب فوقها : « لا يدخل هنا من لم يكن إنسانياً . » وقد وجب عليّ ان أتخلى عن كل ما بدأته ؛ كان ينبغي ان أختار : فاما انها كانت محاولة لامعقولة ومخفقة ، واما انها يجب تنتهي عاجلاً او آجلاً لمصلحتهم . إن الافكار التي لم أكن ارصدها لهم بصراحة ، لم اكن انجح في فصلها عن نفسي ، في تكوينها : فكانت تبقى فيّ كأنها حركات عضوية خفيفة . وحتى الآلات التي كنت استعملها ، كنت أحس أنها لهم ؛ الكلمات مثلاً : كنت اريد كلمات لي ، ولكن التي تحت تصرّفي قد ساحت في ضمائر لا أعرف لها عدّاً ؛ انها تنتظم في رأسي من تلقاء نفسها بفضل العادات التي اكتسبتها لدى الآخرين ، وانا اذ استعملها في الكتابة اليك ، لا أفعل ذلك بلا اشمئزاز . غير اني أفعل هذا للمرة الأخيرة : واقول لك : يجب على المرء ان يحب البشر ، وإلاّ لم يسمحوا له بأن يتحرّك في أي عمل . حسناً ، اما انا ، فلا اريد ان أتحرك في عمل ، بل سآخذ الساعة مسدسي فأهبط الى الشارع وسأرى اذا كان من الممكن النجاح في شيء يُعمل ضدّهم . فوداعاً يا سيدي ، ربما كنت انت الذي سألقاه . إنك لن تعرف اذذاك بأية متعة سأطير دماغك . وإلاّ — وهذا هو الأرجح — فاقرأ صحف الغد . فسترى فيها ان شخصاً يُدعى بول هيلبير قد قتل ، في فورة غضب ، خمسة مارّة في جادة ادغار — كينيه . وانت تعرف خيراً من اي انسان ما قيمة نثر الصحف اليومية الكبرى . وستفهم إذن انني لست « غاضباً » . فانا على العكس هادىء جداً ، وارجوك يا سيدي ان تتقبل وافر احترامي .

« بول هيلبير »

دسست المئة والرسالتين في مئة مغلف ومغلفين ، وكتبت على المغلفات عناوين مئة كاتب وكاتبين فرنسيين . ثم وضعتها كلها في درج من طاولتي مع ست دفاتر من الطوابع .

وفي الخمسة عشر يوماً التالية لم أخرج من البيت الا قليلاً ، وكنت أشغل نفسي ببطء في جريمتي . وفي المرآة التي كنت اذهب احياناً فأرى فيها نفسي ، كنت الاحظ تغيّرات وجهي بغبطة . كانت عيناي قد اتسعتا حتى كانتا تأكلان كل سحنتي ، وكانتا سوداوين ورقيقتين تحت النظارتين ، وكنت أديرهما كالأكرة . انهما عينا فنّان وقاتل جميلتان . ولكني كنت أعوّل على ان اتغيّر تغيّراً أعمق بعد إنجاز المذبحة . وقد رأيت صورة هاتين الفتاتين الجميلتين ، هاتين الخادمتين اللتين قتلتا سيدتهما وسلبتاها. رأيت صورتهما قبلُ وبعد . كان وجهاهما قبل يتأرجحان كزهرتين عاقلتين فوق ياقتهما القطنية . كانتا تتنفّسان الصحة والكرامة المشهية . وكانت مكواة ناعمة قد موّجت شعرهما على نحو متشابه . وكان ثمة ما هو أشدّ طمأنةً من شعرهما المجعّد وياقتهما وهيأتهما التي توحي بأنهما تزوران احد المصوّرين ، هو تشابههما الذي كان يُبرز على الفور علاقات الدم والجذور الطبيعية للفئة العائلية . اما بعد ، فقد كان وجهاهما يلتمعان كالحريق . كان لهما العنق العارية التي يملكها المرصودون لقطع الرأس . تجعّدات في كل مكان . تجعّدات فظيعة من الخوف والحقد ، وثنيات وثقوب في اللحم كما لو أن حيواناً ذا مخالب قد استدار على وجهيهما . وتلك العيون ، دائماً تلك العيون الكبيرة السود التي لا عمق لها ، والتي تشبه عينيّ . غير انهما لم تكونا تتشابهان بعد . كانت كل منهما تحمل ، بطريقتها الخاصة ، ذكرى جريمتهما المشتركة . وكنت اقول لنفسي : « اذا كان كافياً لتغيير هاتين السحنتين جرمٌ لعبت فيه المصادفة اكبر الدور ، فما الذي لا آمله من جريمة صمّمتها ونظمتها بنفسي ؟ » إن هذه الجريمة ستستولي عليّ ، وستقلب قبحي المفرط في البشرية .. إن الجريمة تقطع الى شطرين حياة من يرتكبها . ولا بدّ ان هناك لحظات يتمنّى المرء فيها ان يتراجع

الى الوراء ، ولكن الجريمة قابعة هناك ، خلفك ، تسدّ عليك الطريق ، شبيهة بمعدن يطلق الشرر . ولم اكن اطلب الا ساعة واحدة لأنعم بجريمتي ، ولأحسّ ثقلها الساحق : وقد قررت ان أنفذّها في أعلى شارع اوديسا . سأفيد من الاضطراب والارتباك لأهرب ، تاركاً إياهم يلتقطون موتاهم . وسأعدو ، وسأجتاز جادة ادغار كينيه ثم انعطف بسرعة في شارع دولامبر . ولن اكون بحاجة الى اكثر من ثلاثين لحظة لأبلغ باب البناية التي أسكنها . وفي تلك اللحظة ، يكون مطارديّ ما يزالون في جادة ادغار كينيه ، وسيفقدون أثرى ، ولا شك في انهم سيحتاجون الى اكثر من ساعة للعثور عليه . وسوف أنتظرهم في بيتي ، وحين أسمعهم يطرقون بابي ، أحشو مسدسي من جديد وأطلق الرصاص على فمي .

كنت أعيش في بحبوحة اكبر ؛ وكنت قد اتفقت مع طبّاخ في شارع فافين على ان يرسل إليّ في الصباح والمساء وقعات صغيرة لذيذة . وكان خادمه يرن جرس بابي ، فلا افتح له ، بل أنتظر بضع دقائق ، ثم أشقّ الباب فأرى في سلّة مستطيلة موضوعة على الأرض صحوناً ملآى يتصاعد منها البخار .

وكان باقياً معي في الساعة السادسة من مساء ٢٧ اكتوبر سبعة عشر فرنكاً ونصف الفرنك . وقد أخذت مسدسي ورزمة الرسائل وهبطت . وحرصت على ألاّ أغلق الباب ، لأتمكن من الدخول على نحوٍ أسرع بعد ان أنجز مهمتي . ولم اكن أحسّني مرتاحاً ؛ فقد كانت يداي باردتين والدم في رأسي ، وكانت عيناي تدغدغانني . وجعلت أنظر الى الحوانيت ، والى فندق « ديزيكول » والى دكان القرطاسية الذي أبتاع منه أقلامي ، فلم أتعرّف عليها . وكنت أقول لنفسي : « ما هذا الشارع ؟ » كانت جادة مونبارناس تغص بالناس ؛ وكانوا يدفعونني ويضربونني بمرافقهم او باكتافهم . وكنت استسلم للدفع والجذب ، تنقضى القوة لكي اندسّ بينهم . ورأيتني فجأة في وسط هذا الحشد ، وحيداً وحدة فظيعة ، وصغيراً . ما أيسر أن يؤذوني ، لو كانوا يريدون ! كنت خائفاً بسبب السلاح القابع في جيبي . وكان يخيّل إليّ انهم

على وشك ان يحدسوا بأنه كان هنا . سوف ينظرون إليّ بعيونهم القاسية ، وسيقولون : « هيه ، ولكن ... ولكن ... » في غيظ فــرح ، فيما هم يتخطّفونني بمخالبهم البشرية . مسحول ! سيقذفونني من فوق رؤوسهم وسأسقط ثانية في أذرعتهم كالدمية . وهكذا وجدت من الأحكم ان اؤجل الى الغد تنفيذ مشروعي . وذهبت أتناول العشاء في « الكوبول » فدفعت ستة عشر فرنكاً وثمانين . وبقي لي سبعون سنتيماً ألقيت بها في الجدول .

وبقيت ثلاثة أيام في غرفتي من غير ان آكل أو أنام . وكنت قد أغلقت الشبابيك ولم اكن اجرؤ على الاقتراب من النافذة ولا على إشعال النور . ويوم الاثنين دقّ أحدهم جرس بابي ، فأمسكت نَفَسي وانتظرت. وبعد دقيقة دُقّ الجرس مرة اخرى ، فسرت على رؤوس أصابعي وألصقت عيني بالقفل . فلم أر الا قطعة قماش وزراً . ودق الرجل الجرس مرة ثالثة ثم هبط : ولم اعرف من كان . وفي الليل ، حلمت احلاماً نديّة ، فرأيت نخيلاً وماء يجري وسماء بنفسجية فوق قبّة . ولم أكن أحسّ بالعطش لأني كنت بين ساعة وساعة ، اقصد صنبور الماء فأشرب . ولكني كنت جائعاً . وحلمت ايضاً بالبغي السمراء . وكان ذلك في قصر أمرت ان يُبنى عند « الكوس نوار » على بعد عشرين ميلاً من أبعد قرية . كانت عارية ووحيدة معي . وقد قسرتها على الركوع بتهديد من مسدسي ، وعلى أن تعدو على أربع ، ثم أوثقتها الى عمود ، وبعد ان شرحت لها مطولاً ما سوف أقوم به ، ثقبتها بالرصاص . ولقد اثارت هذه الصور اضطرابي الى حدّ بعيد حتى اني سررت بها . وبعد ذلك بقيت جامداً في الظلام ، ورأسي فارغ تماماً ؛ وأخذ الأثاث يفرقع . كانت الساعة الخامسة صباحاً ، وكنت مستعداً ان أعطي كل شيء لكي أغادر غرفتي ، ولكني لم اكن استطيع الهبوط ، بسبب الناس الذين كانوا يسيرون في الشوارع .

وأقبل اليوم الموعود . ولم أكن أحسّ بعدُ جوعي ، ولكني أخذت أرشح عرقاً : فبلّلت قميصي . وفي الخارج ، كانت الشمس مشرقة . وفكرت

آنذاك : «في غرفة مؤصدة ، في الظلام هو قابع . منذ ثلاثة أيام لم يأكل ولم ينم . وقد قُرع بابه فلم يفتح . وسيهبط الساعة الى الشارع ، وسيَقتُل . » كنت أخيف نفسي ، وعند الساعة السادسة مساء عاودني الجوع . وكنت مجنوناً من الغضب . وقد اصطدمت ذات لحظة بالأثاث ، ثم أشعلت الكهرباء في الغرف ، والمطبخ ، والمرحاض . وأخذت أغنّي بأعلى صوتي ، ثم غسلت يديّ وخرجت . وقد قضيت دقيقتين طويلتين لكي أضع جميع رسائلي في العلبة . وكنت أدسّها عشراً عشراً . ولا بدّ اني قد دعكت بعضها . ثم سلكت جادة مونبارناس حتى شارع اوديسا . وتوقفت امام مرآة مصنع للقمصان ، وحين رأيت فيها وجهي ، فكرت : «موعدنا هذا المساء . »

وتمركزت في أعلى شارع اوديسا ، غير بعيد عن عمود يحمل مصباح غاز ، وانتظرت . ومرّت امرأتان . كانت احداهما تمسك بذراع الأخرى ، وكانت الشقراء تقول :

– كانوا قد وضعوا سجّاداً على جميع النوافذ ، وكان نبلاء البلدة هم الذين يقومون بالتمثيل .

فسألتها الأخرى : – وهل يرتدون ألبسة التمثيل ؟

– لا حاجة الى ارتداء هذه الألبسة لقبول عمل اجرته خمسة دراهم في اليوم .

قالت السمراء ، مبهورة :

– خمسة دراهم !

وأضافت وهي تحاذيني :

– ثم أتصوّر انه لا بدّ ان يلذّهم ان يلبسوا ثياب أجدادهم .

وابتعدتا . كنت أحسّ البرد ، ولكني كنت أرشح بغزارة . وبعد لحظة ، رأيت ثلاثة رجال يصلون ، فتركتهم يمرّون : انني بحاجة إلى ستة . ونظر اليّ الرجل الذي كان الى الشمال ، وصفق لسانه ، فصرفت عنه نظري .

وفي الساعة السابعة وخمس دقائق ، برز من جادة ادغار كينيه فريقان

يتبع اولهما الآخر . كان هناك رجل وامرأة وولدان . وكان ثمة خلفهم ثلاث نسوة عجائز . وخطوت خطوة الى الأمام . كانت المرأة تبدو غاضبة ، وكانت تهزّ الولد الصغير من ذراعه . وقال الرجل بصوت ممطوط :

– إنه مزعج ، ايضاً ، هذا البرغوث !

وكان قلبي يخفق بشدة حتّى ان ذراعي أخذت تؤلمني . وتقدمت ووقفت أمامهم ، جامداً . وكانت أصابعي ، في جيبي ، مائعة تماماً حول الزناد . وقال الرجل وهو يدفعني :

– عفواً .

وتذكرت اني كنت قد أغلقت باب شقّتي ، فأزعجني ذلك : لا بدّ لي من إضاعة وقت ثمين في فتحه . وابتعد الجميع . فاستدرتُ وتبعتهم آلياً . ولكنّ الرغبة في اطلاق الرصاص عليهم كانت قد غادرتني . وضاعوا في جمهور الجادة . اما انا ، فاستندت الى الجدار . وسمعت الساعة الثامنة تدق ، ثم الساعة التاسعة . وكنت اردّد لنفسي : « لماذا ينبغي ان اقتل جميع هؤلاء الأشخاص الذين سبق ان ماتوا ؟ » وأخذتني الرغبة في الضحك . واقبل كلبٌ يشمّ قدميّ .

حين تجاوزني الرجل الضخم ، انتفضت ولحقت به . وكنت أرى ثنية رقبته الحمراء بين قبعته وياقة معطفه . كان يتمايل قليلاً ويتنفّس بقوة ، وكان يبدو قويّ الشكيمة . وأخرجت مسدسي : كان لمّاعاً وبارداً ، وكان يثير اشمئزازي ، ولم أتذكّر جيداً ما كان ينبغي ان أفعل به . وكنت تارة انظر اليه ، وتارة انظر الى رقبة الرجل . وكانت ثنية الرقبة تبسم لي ، كفم مبتسم مرّ . وكنت أتساءل عما اذا لم اكن على وشك ان أقذف بمسدسي في ساقية .

والتفت الرجل فجأة ونظر إليّ نظرة حانقة . وخطوت خطوة الى الوراء

– أردت ان ... أسألك ...

لم يكن يبدو عليه انه يسمع ، بل كان ينظر الى يديّ ، واتممت عبارتي بمشقة :

– هل تستطيع ان ترشدني الى شارع « لاغيتيه » ؟

كان وجهه ضخماً وكانت شفتاه ترتجفان . ولم يقل شيئاً ، بل مدّ يده ، فتراجعت خطوة اخرى وقلت له :

– اني اودّ ...

وفي تلك اللحظة عرفت اني سآخذ في الصراخ . ولم اكن اريد ذلك : فأطلقت ثلاث رصاصات في بطنه . وسقط في هيئة بلهاء على ركبتيه وتدحرج رأسه على كتفه اليسرى . وقلت له :

– جبان قذر ! قذر ملعون !

ولذت بالفرار . وسمعته يسعل . وسمعت كذلك صراخاً ووقع اقدام خلفي . وسأل صوت : « ماذا هناك ؟ انهما يتقاتلان ؟ » ثم صاح صوت بعد ذلك مباشرة : « الى القاتل ! – الى القاتل ! » ولم اكن افكر ان هذه الصيحات كانت تعنيني ، ولكنها كانت تبدو لي مفجعة ، كصفارة رجال الاطفاء حين كنت طفلاً . مفجعة ومضحكة بعض الشيء . كنت اعدو بكل ما في ساقيّ من قوة .

غير اني كنت قد ارتكبت غلطة لا تغتفر : فبدلاً من أن أصعد شارع اوديسا نحو جادة ادغار كينيه ، كنت أهبطه باتجاه جادة مونبارناس. وحين لاحظت ذلك ، كان الاوان قد فات : انني في قلب الجمهور ، وكانت وجوه دَهِشة تلتفت نحوي (واني اتذكر وجه امرأة شديدة الزينة كانت تضع قبعة خضراء مزدانة بالريش) وكنت أسمع لوّماء شارع اوديسا يصرخون « الى القاتل » خلف ظهري . وأحسست يداً تحطّ على كتفي . واذاك أضعت رشدي : لم اكن اريد ان اموت مختنقاً بهذا الحشد . وأطلقت رصاصتين أخريين من مسدسي . فأخذ الناس يصيحون ويتدافعون مبتعدين . ودخلت احد المقاهي ركضاً ، فنهض الزبائن لدى مروري ولكنهم لم يحاولوا أن يوقفوني ، وعبرت المقهى بطوله وحبست نفسي في المرحاض . وكانت رصاصة واحدة باقية في مسدسي .

وانقضت لحظة . وكنت ألهث ، وكان كل شيء صامتاً صمتاً عجيباً ،

كما لو ان الناس كانوا يتعمّدون ان يصمتوا . ورفعت سلاحي حتّى عيني فرأيت ثقبه الأسود المستدير : إن الرصاصة ستخرج من هنا ؛ وسيحرق البارود وجهي . وتركت ذراعي تسقط ، وانتظرت . وبعد لحظة ، قَدِموا بخطى مختلسة ؛ ولا بد انهم كانوا فرقةً برمّتها ، اذا حكمنا على ذلك من وقع الاقدام على الأرض الخشبية . وتهامسوا قليلاً ثم صمتوا . اما انا ، فقد كنت ما أزال ألهث ، وكنت افكر بأنهم كانوا يسمعون لهاثي من وراء الجدار . واقترب أحدهم على مهل وهزّ قبضة الباب . ولا بدّ انه كان واقفاً عند الباب جانبياً ليتجنّب رصاصي . ومع ذلك ، فقد أخذتني الرغبة بأن أطلق — ولكن الرصاصة الأخيرة كانت لي .

وتساءلت : « ما الذي ينتظرونه ! لو ارتموا على الباب وبقروه على الفور لن يكون لي وقت كافٍ لكي أقتل نفسي ، وهكذا يأخذونني حياً . » ولكنهم لم يكونوا مستعجلين ، كانوا يتركون لي اوسع المجال لكي اموت . كان القذرون خائفين .

وبعد لحظة ، ارتفع صوت :

— كفى ! افتح ، فلن نؤذيك .

وساد صمت ، ثم استطرد الصوت نفسه :

— انت تعلم جيداً انك لن تستطيع الإفلات .

فلم أجب ، وكنت ما ازال ألهث . ولكي أشجّع نفسي على اطلاق النار ، قلت لنفسي : « لو أخذوني لانهالوا عليّ ضرباً ، ولحطّموا أسناني ، وربما فقأوا لي عيناً . » وقد كنت اودّ لو أعرف اذا كان الرجل الضخم قد مات . فربما قد جرحته فحسب ... والرصاصتان الاخريان ... ربما لم تصيبا أحداً .. كانوا يُعدّون شيئاً ما ، هل كانوا يسحبون شيئاً ثقيلاً على الارض الخشبية ؟ وأسرعت أضع فوهة سلاحي في فمي ، وعضضت عليه بقوة كبيرة . ولكني لم اكن أستطيع ان أطلق ، حتّى ولا ان أضع اصبعي على الزناد . وكان كل شيء قد سقط مرة اخرى في الصمت .

واذ ذاك رميت مسدسي وفتحت لهم الباب .



١

كانت لولو تنام عارية لأنها كانت تحبّ ان تحتكّ بالأغطية ، ولأن تنظيف الثياب يكلّف غالياً . وكان هنري قد احتجّ في بادىء الأمر : فان المرأة لا تنام عارية في سرير ، إن هذا لا يُفعل ، ثم إنه قذر . ولكن الأمر انتهى به مع ذلك الى ان يحذو حذو زوجته ، غير ان هذا كان من قبيل التساهل ؛ لقد كان صلباً كالوتد امام الناس (وكان معجباً بالسويسريين ولا سيما بسكان جنيف ، وكان يجد لديهم هيئة تثير الاحترام لأنهم كانوا من الخشب) ولكنه كان يهمل نفسه في الامور اليسيرة ، من ذلك مثلاً انه لم يكن نظيفاً جداً ، ولم يكن يغيّر سراويله غالباً ؛ وحين كانت لولو تدفعها الى الغسيل ، لم يكن يسعها الا ان تلاحظ ان داخلها كان أصفر من فرط الاحتكاك بالعورة . ولم تكن لولو شخصياً تحتقر القذارة : إن القذارة توحي بنصيب اكبر من الصميمية وتعطي ظلالاً رقيقة ؛ عند تجويفات المرافق مثلاً ؛ ولم تكن تحب قط اولئك الانكليز ، تلك الأجسام اللاشخصية التي لم تكن تنبعث منها اية رائحة . ولكنها كانت تشمئز من الوان الأهمال التي كان يرتضيها زوجها ، لأنها كانت طرائق لتدليل نفسه . ففي الصباح ، كان اذا نهض أحاط نفسه برقة شديدة ، وبدا وكأن رأسه مليء بالأحلام ، وكانت الشمس المشرقة والماء البارد وشعر فراشي الاسنان تحدث لديه شعوراً بالظلم القاسي .

كانت لولو نائمة على ظهرها وقد ادخلت اصبع قدمها اليسرى الكبيرة

في شقّ بالغطاء ؛ لم يكن شقاً في الواقع وانما كان فتقاً . وكان ذلك يزعجها. يجب ان ارفأ هذا غداً ، ولكنها كانت تشدّ قليلاً على الخيوط لتحسّها وهي تنقطع . ولم يكن هنري قد نام بعد ، ولكنه كان قد كفّ عن الإزعاج . وكان غالباً ما قالها للولو : ما ان يغمض عينيه حتى يُحسّه موثقاً بحبال قوية صامدة ، بحيث لا يستطيع بعد حتى ان يرفع بنصره . ذبابة ضخمة غارقة في خيوط عنكبوت . وكانت لولو تحبّ ان تشعر بهذا الجسم الكبير الأسير ملتصقاً بها . لو كان يستطيع ان يظلّ هكذا مشلولاً ، إذن لكنت أنا التي تعني به وتنظّفه كما تنظّف الطفل وتقلبه احياناً على بطنه وتضربه على مؤخرته ، وحين تجيء امه احياناً لتراه ، سأكشفه بحجّة ما ، فأرفع الأغطية وستراه امه عارياً تماماً . واعتقد أنها ستسقط مغمى عليها ، فلا بد ان خمسة عشر عاماً قد انقضت من غير ان تراه هكذا .

وأمرّت لولو يداً خفيفة على خاصرة زوجها وقرصته قليلاً في أربيّته . وهمهم هنري ولكنه لم يأت حركة . إنه ساقط الآن في العجز . وابتسمت لولو : إن كلمة « عجز » كانت دائماً تحملها على الابتسام . حين كانت ما تزال تحبّ هنري ، وكان يتمدّد هكذا مشلولاً ، الى قربها ، كان يروق لها ان تتصوّره وقد أوثقه رجالٌ قصار على شاكلة اولئك الذين سبق لها ان رأتهم في صورة إذ كانت صغيرة وكانت تقرأ قصة غوليفر . وكانت غالبا ما تسمي هنري بـ « غوليفر » وكان هنري يحب ذلك كثيراً لأنه كان اسما انكليزياً ولأن لولو كانت تبدو متعلمة ، ولكنه كان يؤثر لو ان لولو تنطقه باللهجة الانكليزية . كم استطاعوا ان يزعجوني : لئن كان يريد من هو متعلم ، فما كان له الا ان يتزوج جان بيدير ؛ إن لها نهدين كالبوق ولكنها تعرف خمس لغات . حين كنا ما نزال نقصد « سو » يوم الأحد ، كنت أتضايق في اسرته كثيراً حتى انني كنت أتناول كتاباً، اي كتاب ؛ وكان ثمة دائماً من يأتي فينظر الى ما كنت أقرأه ، وكانت أخته الصغيرة تسألني : « هل تفهمين ، يا لوسي ؟ .. » والحق انه لم يكن يجدني ذات شخصية متميّزة رفيعة . اما

السويسريون ، فهم أشخاص متميّزون رفيعون ، نعم ، لأن أخته الكبرى قد تزوجت رجلاً سويسرياً استولدها خمسة اولاد ، ثم إنهم يُدلّلون عليه بجبالهم . اما انا ، فلا أستطيع ان انجب اولاً ، وهذا دستوريّ ، ولكني لم أعتقد قط ان ما يفعله شيء متميّز رفيع ، حين يخرج معي ، فيقصد المباول دائماً ، واكون مضطرة الى ان اتفرّج على الواجهات في انتظاره ، فأية هيئة تكون لي ؟ ثم يخرج وهو يشدّ على بنطاله ويقوّس ساقيه كأنه عجوز .

وسحبت لو لو إصبع قدمها من شقّ الغطاء وحرّكت رجليها قليلاً ، بغية ان تُحسّ نفسها ناشطة الى قرب ذلك اللحم الطريّ المأسور . وسمعت قرقرة : إن البطن الذي يقرقر يزعجني ، وانا لا أستطيع قط ان أعرف اذا كان بطنه ام بطني .

وأسلبت عينيها : انها موائع تبقبق في رزم من الانابيب الطرية التي يملكها جميع الناس ، مثل ريريت ، ومثلي أنا (انني لا احب ان افكر فيها ، فذلك يحدث لي وجعاً في بطني) . إنه يحبني ، إنه لا يحب أمعائي ، واذا أروه زائدتي الدودية في إناء ، فانه لن يتعرّفها ، إنه لا ينِي يلامسني طوال الوقت ، ولكن اذا وضع الاناء في يديه فلن يشعر بشيء ، في الداخل ، ولن يفكر « إنها لها » . لا بدّ للمرء من ان يستطيع ان يحب كل شيء في شخص ما ، البلعوم والكبد والأمعاء . ربما كان عدم حبّهم إياها راجعاً الى انعدام العادة ؛ فلو انها كانت تُرى كما يرون ايدينا وأذرعنا ، لربما أحبّوها . ولذلك ، لا بدّ ان نجوم البحر تتحابّ خيراً منّا ، انها تتمدد على الشاطىء حين تكون الشمس مشرقة فتُخرج مَعِدَاتها لتجعلها تأخذ الهواء ويستطيع الجميع ان يروها ؛ وانني أتساءل من اين نُخرج نحن معدتنا ، من السرّة .

كانت قد أغمضت عينيها ، فأخذت اسطوانات زرق تدور ، كما حدث في السوق ، أمس ، وكنت أطلق على الاسطوانات أسهماً من المطاط ، فتضيء أحرفٌ مختلفة ، حرفٌ لكل سهم ، وتؤلف اسم مدينة ؛ وقد حال دون ان اشكّل كلمة « ديجون » بكاملها ، إذ كان يمارس عادته بالالتصاق بي

من خلف ، أتمنى ألاّ يكون لي ظهر ، انني لا احبّ ان يقوم الناس معي بأعمال ، حين لا أراهم ، فان بوسعهم ان يُسرّوا ، ثم إننا لا نرى ايديهم ، وانما نشعر بها وهي تهبط او تصعد ، فلا نستطيع ان نتنبأ الى اين هي ذاهبة ؛ انهم ينظرون اليك بملء عيونهم وانت لا تراهم . ولقد كان هو يحب ذلك ؛ إن هنري ما كان له ان يفكر بذلك قط ؛ اما هو فلا يفكر الا بأن يقف خلفي ، وانا واثقة من انه كان يتعمّد ملامسة مؤخرتي لأنه يعرف اني كنت اموت خجلاً ان تكون لي مؤخرة ؛ وانه ليثيره ان أحسّ بالخجل ، ولكني لا أريد ان افكر فيه (كانت خائفة) أريد ان افكر بريريت .

كانت تفكر بريريت كل مساء ، في الساعة نفسها ، حين كان هنري يبدأ في الدمدمة والأنين . ولكن حدثت مقاومة ، فقد كان الآخر يريد أن يظهر ، بل انها رأت ذات لحظة شعراً قطّاً أسود ، وحسبت ان الأمر قد انتهى ، فارتعشت لأن المرء لا يعرف ابداً ما الذي سيبرز ، ولو كان الوجه لهان الأمر ، ولكن هنالك ليالي قضتها من غير ان تغمض عينها بسبب الذكريات القذرة التي كانت قد صعدت الى السطح ؛ إنه فظيع ان يُعرف كلّ شيء في رجلٍ ما ، ولا سيما هذا .

اما هنري ، فشأنه مختلف ؛ انني أستطيع أن أتصوّره من الرأس حتى القدمين ، وذلك ما يسترقّني ، لأنه طريّ ، ذو بشرة رمادية باستثناء البطن الذي هو ورديّ : وهو يقول إن الرجل الجميل الجسم حين يجلس ، يُحدث بطنه ثلاث طيّات ؛ أما بطنه هو فيحدث ست طيّات ، غير انه يعدّها اثنتين اثنتين ولا يريد ان يرى الأخرى .

وشعرت بالانزعاج وهي تفكر بريريت : « لولو ، انت لا تعرفين ما عسى ان يكون جسم الرجل الجميل » إن هذا مضحك ، بالطبع بلى ، اعرف ما هو ، انها تقصد الجسم القاسي كالحجارة ، ذا العضلات ، وانا لا أحب هذا ، وقد كان لباترسون جسمٌ كهذا ، وكنت انا أحسّني طريّة ، كدودة الفراش ، حين كان يشدّني اليه ؛ اما هنري، فقد تزوجته لأنه كان طريّاً ،

لأنه كان يشبه خورياً. إن الحوارنة يوحون بالعذوبة والرقة، كالنساء، بجببهم، ويبدو أنّ لهم أسافل. حين كنت في الخامسة عشرة كنت أودّ لو أرفع على مهل ثوبهم وأرى رُكَبَهم الرجالية وسراويلهم، وكنت أستغرب ان يكون لهم شيء بين أفخاذهم؛ وكنت أتمنّى ان آخذ الثوب بيد، وان أزلق اليد الأخرى على طول سيقانهم واصعد بها حتّى حيث أفكّر؛ ليس ذلك لأني أحبّ النساء كثيراً، ولكن آلة الرجل، حين تكون تحت ثوب، تشبه زهرة ضخمة (...) [1] وقد كنت أحبّ هنري لأن شيئه الصغير لم يكن يقسو ابداً (....) وكنا نبقى كذلك مدة طويلة، حتّى ينام. واذ ذاك كنت أتمدّد على ظهري وافكر بالحوارنة، وبأشياء طاهرة، وبنساء، وأبداً بملامسة بطني، بطني الجميل المسطح (...) حتّى تتحقق متعتي.

الشعر القطّ، الشعر الزنجي. والضيق في الحنجرة كالكرة. ولكنها شدّت جفونها بقوة، واخيراً كانت أذُن ريريت هي التي ظهرت، أذنٌ صغيرة حمراء ومذهّبة كانت تشبه السكّر القندي. واذ رأتها لولو لم تصب من المتعة اكثر من المعتاد لأنها كانت تسمع صوت ريريت في الوقت نفسه. كان صوتاً ثاقباً واضحاً لم تكن لولو تحبه. «يجب ان تذهبي مع بيار، يا صغيرتي لولو؛ انه الشيء الوحيد الذكي الذي يمكن ان تفعليه.» صحيح اني أكن كثيراً من الحب لريريت، ولكنها تزعجني قليلاً حين تضفي على نفسها مظهر الأهمية، وتنسحر بما تقوله.

كانت ريريت في الليلة السابقة قد مالت في «الكوبول»، وعلى وجهها سيماء التعقّل والقسوة: «انك لا تستطيعين ان تبقي مع هنري، ما دمت لا تحبينه بعد، سيكون ذلك جريمة.» انها لم تكن تضيّع مناسبة من غير ان تقول عنه سوءاً، وانا أجد ان ذلك ليس لطيفاً منها، فهو قد كان دائماً رقيقاً معها؛ من الممكن انني لا أحبّه بعد، ولكن ليس من شأن ريريت ان تقول

---

(١) هنا بضعة أسطر رأينا حذفها ... (المترجم)

لي ذلك ؛ إن كل شيء يبدو معها بسيطاً ويسيراً : إن المرء يحب او يكفّ عن الحب ؛ ولكني انا لست بسيطة . إن لي اولاً عاداتي هنا ، ثم اني احبه كثيراً ، فهو زوجي . كان بودّي أن أضربها ، وإن بي رغبة لأن اوجعها ، لأنها سمينة . « سيكون ذلك جريمة » لقد رفعت ذراعها فرأيت إبطها ، وانا احبّها حباً أفضل حين تكون ذراعاها عاريتين . الإبط . لقد انفتح فكأنه فم ، ورأت لولو لحماً أشقر ، متغضّناً بعض الشيء ، تحت زغب أجعد يشبه الشعر ؛ إن بيار يدعوها « منيرفا السمينة » وهي لا تحبّ هذا على الاطلاق .

وابتسمت لولو لأنها كانت تفكر بأخيها الصغير روبير الذي قال لها يوماً وهي في مباذلها : « لماذا يكون لك شعرٌ تحت الذراعين ؟ » فأجابته يومذاك : « إن هذا مرض » . كانت تحب كثيراً أن ترتدي ثيابها بوجود أخيها الصغير ، اذ كانت لديه دائماً أفكارٌ طريفة يتساءل المرء عندها من أين يأتي بها . وكان يمسّ جميع حاجات لولو ، ويطوي الأثواب بعناية ، وكانت له يدانِ رشيقتان جداً . بحيث انه سيكون فيما بعد خيّاطاً ماهراً . إنها مهنة لذيذة ، وسوف أرسم انا أقمشة له . إن مما يثير الفضول ان يفكّر ولدٌ في ان يصبح خيّاطاً ؛ ولو انني كنت صبيّاً ، فيخيّل إليّ اني كنت أودّ لو أكون رحّالة او ممثلاً ، لا خياطاً ؛ غير انه كان ابداً حالماً ، إنه لا يتكلم بما فيه الكفاية ، وهو يلاحق فكرته ؛ وقد كنت انا اودّ ان اكون راهبة لأذهب فأجمع الصدقات من البنايات الجميلة . أحسّ عذوبة في عينيّ ، عذوبة اللحم الطريّ ، سأستسلم للنوم . وجهي الجميل الأصفر تحت كساء الراهبة ؛ إذن لكانت لي هيئة متميّزة ، ولكنت أرى مئات من المداخل المعتمة ، ولكانت الخادم تشعل النور على الفور تقريباً ، ولكنت ألمح لوحات للأسر ودمى برونزية على الطاولات . ومشاجب . وتأتي السيدة وبيدها دفتر صغير وورقة من فئة الخمسين فرنكاً وتقول لي : « خذي، ايتها الأخت » . « شكراً يا سيدتي ، ليباركك الرب . الى المرة القادمة . » ولكني ما كنت لأكون اختاً حقيقية ، بل كنت في الاوتوبيس أغمز ذات يوم رجلاً ، فيذعر باديء ذي بدء ،

ثم يتبعني وهو يروي لي قصصاً ، فأقتاده الى حيث يقبض عليه شرطيّ . اما الصدقات ، فأحتفظ بها لنفسي . وما الذي كنت أشتريه ؟ واقياً . هذا سخيف .

إنّ عينيّ تميعان ، ذلك لذيذ ، فكأنهما بُلّلتا بالماء ، وجسمي كلّه مرتاح . التاج الجميل الأخضر ذو الزمرّد واللازورد . ودار التاج ودار ، فاذا هو رأس جاموس فظيع ؛ ولكن لولو لم تكن خائفة . انها تقول : « طيور الكانتال ! » كان نهرٌ طويل أحمر يسيل عبر أرياف قاسية . وكانت لولو تفكر في مُقطّعتها الآلية ثم في الغومينا .

« سيكون ذلك جريمة ! » وانتفضت وانتصبت في ليلها ، قاسية العينين . انهم يعذبونني . اتراهم لا يُحسّون بذلك ؟ أنا أعلم جيداً ان ريريت تفعل ذلك بقصد حسن ، ولكنها ينبغي أن تتركني ، هي الحكيمة بالنسبة للآخرين ؛ اني بحاجة لأن افكّر . لقد قال لي : « ستأتين ! » وهو ينظر إليّ بعينين من جمر . « ستأتين الى بيتي انا . انني اريدك كلّك لي . » اني أشمئز من عينيه حين يريد أن يجعل نفسه منوّماً مغنطيسياً ، وكان يعجن لي ذراعي ؛ وحين أرى عينيه تينك افكر دائماً بالشعر النابت على صدره . ستأتين ، اني اريدك كلّك لي ؛ كيف يمكن للمرء أن يقول أشياء كهذه ؟ انا لست كلباً .

حين جلست بسمتُ له ، وكنت قد غيّرت مسحوقي من أجله ، وكنت قد كحّلت عينيّ لأنه يحبّ هذا ، ولكنه لم ير شيئاً ، إنه لا ينظر الى وجهي ، بل كان ينظر الى نهديّ ، وقد كنت اودّ لو يجفّان على صدري ، لأضايقه ، بالرغم من اني لا أملك الا نهدين صغيرين جداً . ستأتين الى مقصورتي في نيس . وقد قال انها مقصورة بيضاء ذات سلّم مرمري وانها تطلّ على البحر ، واننا سنعيش عاريين طوال النهار ، ولا بد ان من الغرابة ان تصعد امرأة سلّماً وهي عارية ؛ سأجبره على ان يصعد قبلي ، حتى لا ينظر إليّ ؛ والا لما استطعت ان ارفع قدمي ، بل سأبقى جامدة وانا أتمنّى من كل قلبي ان يصبح أعمى ؛ والحق ان ذلك لن يغيّرني ابداً ، فهو حين يكون هنا ،

أحسبني دائماً عارية . لقد أخذني من ذراعيّ وكان الخبث في عينيه ، فقال لي : « انك في جلدي ! » فأخذني الخوف ، وقلت : « نعم » ؛ اريد ان أسعدك ، سنذهب فنتنزه في السيارة ، وفي الباخرة ، سنقصد ايطاليا وسأعطيك كل ما تشاء . ولكن مقصورته تكاد تكون غير مؤثثة ، وسننام على الأرض فوق فراش . انه يريد ان أنام بين ذراعيه ، وسأحسّ رائحته ؛ وسأحب كثيراً صدره لأنه عريض أسمر ، ولكنّ فوقه ركاماً من الشعر . ليت الرجال كانوا بلا شعر ؛ أما شعره فأسود رقيق كالزبد ، أداعبه احياناً واحياناً أشمئز منه ، فأتراجع الى أبعد حد ممكن ، ولكنه يُلصقني به . انه يريد ان انام بين ذراعيه ، وسيشدّني بين ذراعيه وسأشمّ رائحته ، وحين يهبط الليل ، سنسمع هدير البحر ، وهو قادر على ان يوقظني في منتصف الليل اذا كانت لديه الرغبة في ذلك : ولن أستطيع ابداً ان أنام باطمئنان الا حين أكون في الطمث ، لأنه في تلك الفترة سيدعني وشأني بلا شك (....) لماذا ينبغي ان تكون لنا أجسام ؟

فتحت لولو عينيها ، وكانت الستائر حمراء بفعل نورٍ كان يصدر عن الشارع . وكان في المرآة انعكاس أحمر ؛ وكانت لولو تحب هذا النور الأحمر ، وكان ثمة أريكة تبرز في ظلّ صيني عند النافذة . وعلى ذراع الأريكة ، كان هنري قد وضع بنطاله ، وكانت رافعتاه تتدليان في الفراغ . يجب أن أشتري له مشدّاً للرافعة . اوه ، لا اريد ، لا اريد ان أذهب . سيقبّلني طوال النهار وسأكون له ، وسأحقّق له لذّته ، وسينظر إليّ ؛ وسيفكر : « انها لذّتي . لقد لمستها هنا وهناك ، وبوسعي ان أعيد العمل متى حلا لي . » في بور — رويال .

وارسلت لولو ضربات من قدمها على الأغطية ؛ كانت تحتقر بيار حين تذكر ما حدث في بور — رويال . كانت خلف السياج ، وكانت تحسب أنه كان باقياً في السيارة ، وانه كان ينظر في الخارطة ، وفجأة رأته وقد جاء بخطى مختلسة خلفها ، وكان ينظر اليها .

وارسلت ضربة من قدمها الى هنري ؛ إن هذا سيستيقظ ؛ ولكن هنري ارسل تنهدة ولم يستيقظ . اودّ لو أتعرف على فتى جميل ، طاهر كالفتاة ، ولن يمسّ أحدنا الآخر ، وسوف نتنزّه على الشاطىء وأحدنا يمسك بيد الآخر ، وفي الليل ننام في سريرين توأمين ، وسنبقى كالأخ والأخت ونتحدث حتّى الصباح . او انني افضّل ان اعيش مع ريريت ، فان النساء فيما بينهنّ شيء فاتن ؛ إن لها كتفين ريانتين ملساوين ، وقد كنت شقيّة جداً حين كانت تحب فرنيل ، ولكن كان يثيرني ان افكر بأنه كان يداعبها ، وانه كان يُمرّ يديه متمهلاً على كتفيها وخاصرتيها وانها كانت تتنهّد . واني لأتساءل كيف يمكن ان تكون سحنتها اذ تكون ممدّدة على هذا النحو ، عارية تماماً ، تحت رجل ، وهي تُحسّ يدين تتنزّهان على لحمها . انني اذذاك لن ألمسها ولو أعطيتُ ذهب العالم كلّه . فأنا لا أدري ما عساني أفعل بها ، حتّى ولو كانت تريد ، حتّى ولو قالت لي : « انني اريد » ، لا ادري ، ولكن لو كنت كائناً لا يُرى ، فاني كنت أتمنّى ان اكون هناك ، إذ هي في تلك الوضع ، وانظر الى وجهها (وستأخذني الدهشة ان ارى أنّ لها بعدُ هيئة منيرفا) وان الامس بيدٍ خفيفة ركبتيها المنفرجتين ، ركبتيها الورديتين ، وان أسمعها تئنّ .

وأخذت لولو ضحكةً قصيرة ، بينما كان حلقها جافّاً : عجباً ، كيف تخطر للانسان احياناً مثل هذه الأفكار . لقد سبق لها ان اخترعت مرةً ان بيار كان يريد ان يغتصب ريريت . وكنت أساعده ، فأمسك ريريت بين ذراعيّ . أمس . كان خدّاها ملتهبين وكنا جالستين على اريكتها ، وكنا متلاصقتين ، وكانت ساقاها مشدودتين ، ولكنا لم نقل كلمة ، ولن نقول كلمة ابداً .

وأخذ هنري يشخر ، فصفّرت لولو . انني هنا ، لا أستطيع ان أنام ، بل أثير أعصابي بنفسي ، وهو ، البليد ، يشخر ، لو أنّه يأخذني بين ذراعيه ، لو أنه يبتهل إليّ ، لو أنه يقول لي : « انك كل شيء بالنسبة لي ، يا لولو ،

اني أحبّك ، فلا تذهبي ! » لقدّمت له هذه التضحية ، ولبقيت ، أجل ، لبقيت معه طوال حياتي ، إرضاءً له .

٢

جلست ريريت على سطيحة « الدوم » وطلبت كأس بورتو . وكانت تُحسّ التعب ، وكانت حانقة على لولو :

« .. ثم إن للبورتو الذي يقدمونه طعم الفلّين ، ولولو تسخر بذلك لأنها تأخذ فناجين قهوة ، غير ان المرء لا يستطيع ان يأخذ فنجان قهوة ساعة تناول المشهّيات ، انهم هنا يأخذون قهوة طوال النهار او قهوة بالحليب لأنهم فقراء ، ولا بدّ ان ذلك يثير أعصابهم ؛ اما انا فلن أستطيع ، بل كنت جديرة بان أصفق الحانوت كلّه بأنوف الزبائن ، إنهم اناسٌ لا حاجة بهم الى ان يقصدوا المقاهي . ولستادري لماذا هي تعطيني دائماً مواعيد اللقاء في مونبارناس. ولو أنها تلقاني في «كافيه دولابيه » او في « البام بام » لكان ذلك ايضاً قريباً من بيتها ، ولكان ذلك يُبعدني انا عن عملي قليلاً ؛ انني لا أستطيع ان أقول كم يُحزنني ان ارى دائماً هذه الرؤوس ، إنّ عليّ ان أجيء الى هنا كلما كانت لديّ دقيقة فراغ ، ولو كان الأمر على السطيحة لهان ، اما هنا ، في الداخل ، فتنبعث رائحة غسيل وسخ ، وانا لا احبّ الفاشلين . وحتّى على السطيحة أحسّني في غير مكاني لإنني نظيفة بعض الشيء ، ولا بدّ ان المارّة يدهشهم ان يروني وسط هؤلاء الناس الذين بلغ بهم الأمر ألاّ يحلقوا ذقونهم ، وهاتيك النساء اللواتي لا ادري كيف أصف هيأتهنّ . لا بدّ أن المارة يقولون فيما بينهم : « ما الذي تفعله هنا ؟ » أنا أعلم ان هذا المقهى تقصده احياناً اميركيات غنيّات غنىً كافياً حين يحلّ الصيف ، ولكن يبدو أنهنّ يتوقّفن الآن في انكلترا بسبب الحكومة القائمة عندنا ، ومن أجل هذا لا تروج تجارة

البذخ ، ولقد بعتُ بنصف القيمة التي بعتُ بها في مثل هذه الفترة من العام الماضي ، واني أتساءل كيف يصنع الآخرون ، ما دمت أنا أمهر البائعات ، هـذا ما قالته لي السيدة دوباش ، واني أرثي ليونيل الصغيرة ، فهي لا تُحسن البيع ، وهي لم تستطع ان تربح درهماً واحداً فوق مرتبها ، هذا الشهر ؛ وإن من تبقى طوال النهار واقفة على قدميها تودّ ان تسترخي قليلاً في مكان ممتع ، مع شيء من الترف ، وشيء من الفنّ ، ومع خدَم مهذّبين ، وتودّ ان تغمض عينيها وتستنيم ، ثم إنها بحاجة الى موسيقى خافتة ، ولن يكلّفها غالياً جداً ان تذهب بين الفينة والفينة الى مرقص « الامباسادور » ؛ ولكن خدم هذا المقهى وقحون جداً ، والملاحظ انهم يخدمون زبائن متواضعين . باستثناء الأسمر القصير الذي يخدمني ، فهو لطيف ؛ وأحسب انه يروق لولو ان تحسّ نفسها محاطة بهؤلاء الأشخاص جميعاً ، فانه يخيفها ان تقصد مكاناً أنيقاً بعض الشيء ، والحق انها ليست واثقة من نفسها ، وهي تشعر بالخوف لمجرد ان يكون لرجلٍ بعض الحركات المميّزة ، وهي لم تكن تحبّ لويس ، حسناً أعتقد ان بوسعها هنا ان تحسّ بالطمأنينة ، ففي الحضور من لا يضعون حتى باقات مستعارة ، وهم بمظهر الفقراء الذي يبدون عليه وبغلايينهم وبهذه العيون التي يرمونك بها ، لا يحاولون حتى ان يخفوا شيئاً ، ويرى المرء انهم لا يملكون مالاً ينفقونه على النساء ، ومع ذلك فليس هذا هو ما يفتقر اليه الحيّ ، بل انه يثير الاشمئزاز ؛ لكأن من يراهم يعتقد انهم على وشك أن يأكلوك وهم مع ذلك غير جديرين بأن يقولوا لك في شيء من اللطف انهم راغبون فيك ، وفي اجراء الامور بشكل يرضيك .

اقترب الخادم :

ـ هل تريدين قدح البورتو بلا ماء ، يا آنسة ؟

ـ نعم . شكراً .

وأضاف ، بصوت ودّي :

ـ ما أجمله طقساً !

قالت ريريت : — لقد آن الاوان .
— صحيح . كاد يخيّل الينا ان الشتاء لن ينتهي .
ومضى فتبعته ريريت بعينيها ، وفكرت : « احبّ هذا الخادم كثيراً ، فهو يعرف كيف يلتزم حدّه ؛ إنه ليس أليفاً ، ولكن لديه دائماً كلمة يقولها لي ، عناية صغيرة خاصة . »

وكان ثمة شاب هزيل مقوّس ينظر اليها بالحاح ؛ وهزّت ريريت كتفيها ثم أولته ظهرها : « إن من يريد أن يغازل النساء ، يستطيع على الأقل ان يلبس ثياباً نظيفة . هذا ما سأجيبه به لو وجّه إليّ الحديث . انني أتساءل لماذا لا تذهب . إنها لا تريد ان تحدث مشقّة لهنري ، وانا أجد ذلك جميلاً اكثر مما ينبغي : انه لا يحق لامرأة ، رغم كل شيء ، ان تفسد حياتها من أجل عنّين . » كانت ريريت تحتقر العنّينين ، وكان هذا امراً يتصل بالجسم . وقالت في عزم : « يجب ان تذهب ، فسعادتها هي التي في الميزان ، وسأقول لها إن على المرء ألاّ يلعب بسعادته . لا يحق لك يا لولو ان تلعبي بسعادتك . بل لن أقول لها شيئاً على الاطلاق ، كفى ، لقد قلت لها مئة مرة بأننا لا نستطيع ان نحقق سعادة الناس بالرغم عنهم . »

وأحسّت ريريت بفراغ كبير في رأسها ، لانها كانت متعبة جداً ، وكانت تنظر الى البورتو في كأسها لزجاً كالكراميل المائع ، وكان صوتٌ يردّد في داخلها : « السعادة ، السعادة » وكانت كلمة جميلة معطّفة وجادّة ، وكانت تفكر بأنهم لو سألوها رأيها في مسابقة « باري — سوار » لقالت إنها أجمل كلمة في اللغة الفرنسية . « هل فكّر فيها أحد ؟ لقد ذكروا : الطاقة ، الشجاعة ، وذلك لأن الذين ذكروها رجال ، وكان لا بدّ من امرأة ، فالنساء هن اللواتي يستطعن ان يجدن هذا ، وقد كان ينبغي رصد جائزتين ، احداهما للرجال ، وفي هذه الحالة تكون كلمة « شرف » هي أجمل كلمة ؛ والاخرى للنساء ، وكنت انا التي سأربح ، كنت سأقول « سعادة » . سأقول لها : « ليس لك الحق بأن تفوّتي سعادتك . سعادتك يا لولو ، سعادتك . » وانا

شخصياً أجد بيار ممتازاً ، فهل اولاً رجل بكل ما في الكلمة من معنى ، ثم إنه ذكيّ ، وهذا لا يُفسد شيئاً ، وهو يملك المال ، وسيوليها كل عنايته. إنه من هؤلاء الرجال الذين يحسنون ازالة صعوبات الحياه الصغيرة ، وهذا ما يروق للمرأة ؛ انني احبّ ان يعرف الرجل كيف يأمر ، ولكنه هو يُحس التحدّث الى الخدم والى الحشم ، فاذا هم يطيعونه ، وانا أسمّي هذا نفوذاً ؛ ولعلّ ذلك هو أشدّ ما يفتقر اليه هنري . ثم إن هناك اعتبارات للصحّة ، فاذا ذكرنا اباها ، حقّ لنا ان ننصحها بالتنبّه والحذر ، فلطيفٌ جداً ان تكون رقيقة العود ، شفافة ، وألاّ تُحسّ قطّ بالجوع ولا بالنعاس . وان تنام أربع ساعات في الليل ، وان تعدو في باريس طوال النهار لتضع مشاريع أقمشة ، ولكن في هذا انعدام وعي وإحساس ، إنها بحاجة الى ان تتبع حمية عقلانية ؛ اني اقرّها على ان يكون طعامها قليلاً في كل وجبة ، ولكن يجب ان تضاعف الوجبات وان تأكل في ساعات محدّدة . وستحرز كسباً كبير اذا أُرسلت لمدة عشرة اعوام الى مصحّ . »

وحدجت بنظرة متبرمة ساعة ساحة مونبارناس التي كان عقرباها يشيران الى الحادية عشرة والدقيقة العشرين . « انني لا أفهم لولو ، إن لها مزاجاً غريباً ، فأنا لم أستطع قط أن أعرف هل كانت تحبّ الرجال ام انها تشمئز منهم : على انها ينبغي ان تكون مسرورة مع بيار ، فانّ ذلك على اي حال يبدّل قليلاً جوّ صاحبها الذي تعرّفت عليه في العام الماضي ، جوّ « رابو ».

وأمتعتها هذه الذكرى ولكنها أمسكت بسمتها لأن الشاب الهزيل كان ما يزال ينظر إليها ، وقد فاجأت نظرته وهي تدير رأسها . لقد كان رابو ذا وجه منقوش بالنقط السود ، وكانت لولو تتسلى بانتزاعها بأن تضغط على البشرة بأظافرها : « إن ذلك يثير الاشمئزاز ، ولكنها ليست غلطتها ، فان لولو لا تعرف ما هو الرجل الجميل ، أما أنا فأعبد الرجال الأنيقين . إن أشياء الرجال اولاً شيء جميل جداً ، قمصانهم وأحذيتهم وربطات عنقهم اللامعة ؛ ربما كان هذا خشناً ، ولكنه عذبٌ جداً ، وقوي ، قوة

عذبة ، وهو أشبه برائحة تبغهم الانكليزي وماء الكولونيا ، وبشرتهم حين يكونون قد حلقوا ذقونهم جيداً .. ليست .. انها ليست كبشرة المرأة ، بل كأنها جلد قرطبي ، وإن اذرعتهم القوية تنغلق عليك ، فتضعين رأسك على صدرهم ، وتحسين برائحتهم القوية العذبة ، رائحة الرجال المتأنقين ، انهم يهمسون لك كلمات عذبة ؛ ولهم أشياء جميلة ، وأحذية جميلة خشنة من جلد البقر ، وهم يهمسون لك « يا حبيبتي ، يا حبيبتي الرقيقة » فتحسّين انك تتراخين .

وفكرت ريريت بلويس الذي كان قد هجرها في العام الفائت فانتبض قلبها : « إنه رجل يحبّ نفسه وله حركات كثيرة ، وخاتم ، وعلبة سكاير ذهبية ، واهواء صغيرة مهووسة .. الحق ان هؤلاء يمكن ان يكونوا خبثاء أحياناً ، فيكونوا اسوأ من النساء . اما الأفضل فهو الرجل ذو الأربعين الذي يتأنّق ويهتمّ بنفسه وقد بدأ شعر صدغيه المسرّح الى خلف يشيب ، الرجل الجافّ ذو الكتفين العريضتين ، الرياضي جداً ، ولكنه يعرف الحياة ويكون طيّباً لأنه يكون قد عاف وتألم . اما لولو ، فليست إلاّ معتّرة ، وهي محظوظة بأن تكون لها صديقة مثلي ، لأن بيار قد بدأ يضجر ، وهناك من سيفيد من ذلك ، بينما أنا اقول له دائماً ان يصبر ، وحين يكون رقيقاً معي بعض الرقة ، لا يبدو عليّ التنبّه الى ذلك ، فأبدأ بالتحدث عن لولو وأجد دائماً الكلمة التي تجعل لها قيمة ، في حين انها لا تستحق الحظ الذي اوتيته ، إنها لا تدرك ذلك ، وأنا أتمنى لها ان تعيش قليلاً وحيدة مثلي منذ ذهب لويس ، واذاك سترى ما معنى ان تعود وحيدة الى غرفتها في المساء، بعد ان تكون قد عملت طوال النهار ، فتجد غرفتها فارغة وتموت رغبةً في ان تريح رأسها على كتف رجل . إنها ستتساءل أين تجد الشجاعة على ان تنهض صباح اليوم التالي وان تعود الى العمل وان تكون فاتنة ومرحة ، وان تمنح الجميع الشجاعة ، في حين انها تفضل ان تموت على ان تتابع هذه الحياة .

ودقت الساعة النصف بعد الحادية عشرة ، وكانت ريريت تفكر بالسعادة ،

بالطائر الأخضر ، طائر السعادة ، طائر الحب المتمرّد . وانتفضت : « لقد تأخرت لولو ثلاثين دقيقة ، هذا طبيعي . إنها لن تترك زوجها أبداً ، فهي لا تملك القدر الكافي من الارادة لتفعل ذلك . والحق انها انما تبقى معه بدافع من الاحترام : انها تخونه ، ولكن ما داموا يقولون لها « سيدتي » فهي تفكر بأن ذلك لا أهمية له . إنها تقول عنه أشياء على غاية السوء ، ولكن يجب ألاّ يُردّد أحدٌ على مسمعها في اليوم التالي ما قالته ، والا فانها ستغضب وستحمرّ خجلاً . ولقد فعلت كل ما كان بوسعي ، وقلت لها ما كان عليّ ان أقول لها ، فهي وشأنها . »

وتوقفت سيارة تاكسي أمام « الدوم » فهبطت منها لولو . وكانت تحمل محفظة ضخمة وكان على وجهها بعض سيماء الجدّ . وصاحت من بعيد :

ــ لقد تركت هنري .

واقتربت وهي منحنية تحت وطأة محفظتها ، وكانت تبتسم . وقالت ريريت مأخوذة :

ــ ماذا يا لولو ؟ انك لا تقصدين ؟..

قالت لولو :

ــ بلى ، لقد انتهى الأمر وتركته .

وظلّت ريريت غير مصدّقة :

ــ وهل عرف ذلك ؟ هل أخبرته به ؟

فأصبحت عينا لولو عاصفتين وقالت :

ــ طبعاً !

ــ حسناً يا صغيرتي لولو !

ولم تكن ريريت تدري بمَ ينبغي ان تفكر ،ولكنها قدّرت بأن لولو كانت بحاجة ، على أي حال ، للتشجيع ، فقالت :

ــ ما أعظم هذا ، وكم كنت شجاعة !

وأخذتها رغبة بأن تضيف : « ترين ان ذلك لم يكن صعباً جداً » ولكنها

تمالكت نفسها . وظلّت لولو صامتة كأنها لتتيح فرصة الإعجاب بها : كان وجهها محمرّاً وعيناها ملتهبتين . وجلست وهي تضع محفظتها بقربها . وكانت ترتدي معطفاً صوفياً رمادياً ونطاقاً جلدياً وصدرة صفراء فاتحة ذات ياقة ملتفّة . وكانت عارية الرأس ، ولم تكن ريريت تحبّ ان تتنزّه لولو عارية الرأس : لقد تعرّفت على الفور هذا المزيج الغريب من اللوم والتسلية الذي كانت غارقة فيه ؛ وكانت لولو تُحدث لديها دائماً هذا التأثير . وقالت ريريت موكّدة : « ان ما احبّه فيها إنما هو حقاً حيويتها . »

قالت لولو :

– في خمس ثوان . لقد قلت له ما كان في قلبي . فبُهت .

قالت ريريت :

– انني لا أصدّق ذلك . ولكن ماذا دهاك يا صغيرتي لولو ! لقد اكلت لحم الأسد ؛ لقد كنت حتى مساء أمس أراهن بقطع رأسي أنك لن تتركيه .

– كان ذلك بسبب أخي الصغير . انني أقرّه ان يتعالى عليّ ، ولكني لا أحتمل ان يمسّ عائلتي بأي سوء .

– ولكن كيف حدث ذلك ؟

قالت لولو وهي تتلوّى على كرسيّها :

– اين الخادم ! إن خدم « الدوم » لا يكونون قط موجودين حين نناديهم ! أيكون الأسمر القصير هو الذي يخدمنا ؟

قالت ريريت :

– نعم . هل تعلمين أني حصلتُ عليه ؟

– حقاً ؟ إذن احترسي من سيدة المغاسل ، فهو دائماً محشور معها . إنه يغازلها ، ولكني أعتقد ان هذه حجّة يتذرّع بها ليرى السيدات الداخلات الى المغاسل . فهنّ حين يخرجن ينظر في أعينهن ليجعل وجوههنّ تحمرّ خجلاً . وبالمناسبة ، سأتركك دقيقة ، فيجب ان أهبط لأتلفن لبيار ، وسوف ينشده ! إذا رأيت الخادم ، أوصيه على فنجان قهوة بالحليب من أجلي .

سأغيب لحظة وسأروي لك كل شيء .
ونهضت ثم خطت بضع خطى وعادت الى ريريت :
– انني سعيدة جداً يا عزيزتي ريريت .
قالت ريريت وهي تأخذ بيديها :
– حبيبتي لولو !
فتخلّصت لولو واجتازت السطيحة بخطوة خفيفة . ونظرت اليها ريريت وهي تبتعد . « ما كنت أحسبها يوماً قادرة على هذا . » وفكرت مندهشة «كم هي جذلى ! إنه يليق لها ان تترك زوجها . لو انها استمعت إليّ لتم ذلك منذ وقت طويل . وعلى أي حال ، إن الفضل يعود إليّ ؛ والحق ان لي تأثيراً كبيراً عليها . »
ورجعت لولو بعد لحظات، فقالت :
– لقد شُده بيار ، وكان يريد تفاصيل ، ولكني سأعطيه إياها بعد قليل ، إذ انني سأتناول الغداء معه . وهو يقول إنه ربما كان بامكاننا ان نذهب مساء الغد .
قالت ريريت :
– كم انا سعيدة يا لولو . إروي لي بسرعة . هل قررت ذلك هذه الليلة ؟
فقالت لولو بتواضع :
– انني ، لو تعلمين ، لم اقرّر شيئاً ، وانما تقرّر ذلك من تلقاء نفسه .
وطرقت الطاولة بعصبية :
– خادم ! خادم ! إن هذا الخادم يزعجني ، اريد فنجان قهوة بحليب .
فصُدمت ريريت : فلو كانت بدل لولو وفي ظروف خطيرة مثل ظروفها ، لما أضاعت وقتها في الجري وراء القهوة بالحليب . إن لولو كائن ساحر ، ولكن من المدهش ان تكون تافهة الى هذا الحدّ ، إنها عصفور .
وانفجرت لولو ضاحكة :
– ليتك رأيت سحنة هنري !

قالت ريريت بلهجة جادّة :
– إنني أتساءل عما ستقول أمك .
فقالت لولو بلهجة واثقة :
– امي ؟ ستكون مسرورة .. لقد كان سيء الأدب معها كما تعلمين ، وكانت حاقدة عليه . لم يكن ينقطع عن لومها بأنها أساءت تربيتي ، واني كنت كذا وكذا ، وان من الواضح اني تلقيت تربية سوقية . والحق ان ما فعلته ، انما فعلته من أجلها تقريباً .
– ولكن ماذا حدث ؟
– لقد صفع روبير .
– ولكن هل اتى روبير الى بيتكم ؟
– نعم ، لقد مرّ هذا الصباح لأن أمي تريد ان تدرّبه عند غومبيز . وأظنّ اني أخبرتك ذلك . لقد مرّ بنا بينما كنا نتناول طعام الفطور ، وصفعه هنري .
فسألتها ريريت وقد تضايقت بعض الشيء ، وكانت تحتقر طريقة لولو في رواية القصص :
– ولكن لماذا ؟
قالت لولو بغموض :
– لقد تبادلا الكلمات ، ولم يرد الصغير ان يتراجع ، بل صمد أمامه وجابهه بالاهانة لأن هنري كان قد دعاه « قليل التربية » وهو لا يعرف غير هذه العبارة بالطبع . وكنت أتلوّى . واذاك نهض هنري ، وكنا نتناول الفطور في الستديو ، فوجّه إليه صفعة تمنّيت معها لو أستطيع قتله .
– وعند ذلك ذهبتِ ؟
قالت لولو مندهشة :
– ذهبتُ ؟ الى اين ؟
– كنت أظنّ انك في تلك اللحظة قد تركتِه . إسمعي ، يا صغيرتي لولو ،

يجب ان تروي لي ذلك بانتظام ، وإلاّ لما فهمت شيئاً .
وأضافت ، وقد داخلها شكّ :
– قولي لي ، هل تركته حقاً ؟
– طبعاً . ها قد مضى عليّ ساعة وانا أشرح لك ذلك .
– حسناً . إذن فقد صفع هنري روبير . وبعد ذلك ؟
قالت لولو :
– بعد ذلك ، حبسته على الشرفة ، وكان ذلك طريفاً جداً . كان ما يزال يرتدي منامته ، وكان يدق الباب ، ولكنه لم يكن يجروْ على ان يكسر الزجاج لأنه بخيل كالقملة . ولو كنت بدلاً منه لحطمت كل شيء حتى ولو اضطررت الى ان ادمي يديّ . ثم جاءت أسرة « تكسييه » ، فأرسل إليّ البسمات عبر الزجاج ، وكان يتظاهر بأن الأمر كان مزاحاً !
وكان الخادم ماراً فأمسكت لولو بذراعه :
– هأنت ذا إذن يا خادم ؟ هل يزعجك بأن تأتيني بفنجان قهوة بحليب ؟
وشعرت ريريت بالضيق فبسمت للخادم بسمة لا تخلو من تواطوْ ولكن الخادم ظلّ رصيناً وانحنى بمجاملة ملآى بالعتاب . وحقدت ريريت قليلاً على لولو : انها لم تكن تعرف قط ان تتخذ اللهجة المناسبة مع من هم دونها ، فهي تارةً أليفة اكثر مما ينبغي ، وطوراً متطلبة وجافة اكثر مما ينبغي .
وأخذت لولو تضحك :
– أضحك لأنني أتمثّل هنري وهو في منامته على الشرفة ، كان يرتعش من البرد . هل تعرفين ما الذي فعلته لأحبسه على الشرفة ؟ كان داخل الاستوديو ، وكان روبير يبكي فيلقي عليه المواعظ . وفتحت النافذة وقلت : « انظر يا هنري ! إن هناك سيارة صدمت بائعة الزهور . » فاقترب مني : إنه يحب كثيراً بائعة الزهور لأنها قالت له إنها كانت سويسرية وهو يظنّ انها مغرمة به . فقال : « اين ذلك ؟ اين ذلك ؟ » فتراجعت على مهل ، وعدت

الى الغرفة وانا أغلق الباب . وصحت به عبر الزجاج : « إن ذلك سيعلّمك كيف تتصرف مع أخي بوحشية . » وتركته اكثر من ساعة على الشرفة ، وكان ينظر إلينا بعينين حمروان ، وكان مزرقّ اللون من الغضب ، وكنت أنا أخرج له لساني وأعطي روبير حلويات ؛ وبعد ذلك أخذت أحمل حوائجي الى الاستوديو وارتديت ثيابي على مرآى من روبير لأني أعرف ان هنري يكره ذلك : كان روبير يقبّل ذراعي وعنقي كرجل صغير ، وهو لذيذ ؛ وقد كنّا نتصرّف كما لو أن هنري لم يكن موجوداً . وقد نسيت من جراء ذلك ان أغتسل .

قالت ريريت وهي تنفجر ضاحكة :

– وذلك الذي كان خلف الباب الزجاجي ؟ إن هذا مشهد مضحك جداً !

وكفّت لولو عن الضحك ، وقالت بلهجة جادة :

– أخشى ان يكون قد أخذ برداً ! إن المرء لا يفكر وهو غاضب .

ولكنها استطردت في جذل :

– كان يمدّ لنا قبضته وكان يتكلم طوال الوقت ، ولكني لم اكن افهم نصف ما كان يقوله . ثم ذهب روبير ، واذذاك قرع آل تكسييه الباب فأدخلتهم . وحين رآهم جعل يبتسم ، بل ينحني علامة الاحترام والتبجيل ، وكنت انا أقول لهم : « انظروا الى زوجي ، حبيبي الكبير ، الا يشبه سمكة في حوض زجاجي ؟ وكان آل تكسييه يحيّونه عبر الزجاج . كانوا مشدوهين بعض الشيء ، ولكنهم كانوا يتمالكون أعصابهم .

وقالت ريريت وهي تضحك :

– انني اتمثّل ذلك ، هاهاها ! زوجك على الشرفة ، وآل تكسييه في الاستديو !

وردّدت عدة مرّات : « زوجك على الشرفة ، وآل تكسييه في الاستديو ! » وكانت تود لو تجد كلمات طريفة موحية لتصف المشهد للولو ، وكانت تعتقد ان لولو لم تكن تملك حسّ الفكاهة . ولكن الكلمات لم تكن لتأتي .

وقالت لولو :

– وفتحت الباب ، فدخل هنري. وقبّلني امام آل تكسييه وهو يدعوني بالعفريتة الصغيرة ، ويقول : « لقد ارادت العفريتة الصغيرة ان تلعب معي لعبة ! » وكنت أبتسم ، وكان آل تكسييه يبتسمون بأدب ، وهكذا كان الجميع يبتسمون . ولكن حين ذهبوا ، وجّه إليّ لكمةً على أذني . واذذاك تناولت فرشاة وقذفته بها فأدركته في فمه : وهكذا شققت شفتيه كلتيهما .

قالت ريريت في حنوّ :

– يا صغيرتي المسكينة لولو !

ولكن لولو ردّت بالحركة كل شعورٍ من عطف . كانت واقفة باستقامة وهي تنفض خصلات شعرها وعليها هيئة المحاربة . وكانت عيناها تقدحان شرراً .

– وعند ذاك تحدّثنا : فمسحت شفتيه بمنشفة وقلت له انني بتّ نافدة الصبر ، وانني لا أحبّه بعد ، وانني سأتركه . فأخذ يبكي ، وقال إنه سيقتل نفسه اذا فعلت . ولكن ذلك لم يؤثّر فيّ : انك تذكرين يا ريريت انه كان في العام الماضي ، في أثناء حوادث رينانيا ، يغنّي لي هذا الموال كل يوم : ستقوم الحرب يا لولو ، وسأذهب الى الجبهة وسأُقتل ، وستفتقدينني وسيأخذك الندم على كل ما سبّبته لي من مشقّات . وكنت أجيبه : « كفى ، انت عنّين ، وهذه احدى الحالات للتسريح من الجندية . » ومع ذلك ، فقد هدّأته ، لأنه كان يتحدّث عن نيّته في ان يحبسني في الاستديو ويقفل عليّ ، وأقسمت له انني لن أذهب قبل مضيّ شهر ، وبعد ذلك ، ذهب الى مكتبه ، وكانت عيناه حمراوين وعلى شفته زبد لزج . إنه لم يكن جميلاً . واما أنا ، فقد قمت بترتيب البيت ، ووضعت العدس على النار ، ثم حزمت حقيبتي . وتركت له كلمة على طاولة المطبخ .

– وماذا كتبت له ؟

قالت لولو باعتزاز :

– كتبت له : « العدس على النار . كُلْ واطفيء الغاز . في البراد لحم خنزير . أما أنا ، فقد مللت وأنا ذاهبة . وداعاً . »

وضحكتا كلتاهما ، والتفت بعض المارة اليهما . وفكرت ريريت ان منظرهما لابدّ ان يكون جذّاباً ، فأسفت أنها لم تكن جالسة على سطيحة « فيال » او « كافيه دولابي » . وحين انتهتا من الضحك صمتتا ، ولاحظت ريريت انه لم يبق لديهما ما تقولانه . وكانت تشعر ببعض الخيبة .

وقالت لولو وهي تنهض :

– يجب ان أذهب . سألقى بيار عند الظهر . ماذا أصنع بحقيبتي ؟

قالت ريريت :

– دعيها لي ، سأودعها الساعة عند سيدة المغاسل ، متى أراك ثانية ؟

– سأمرّ لآخذك عند الساعة الثانية . إن عليّ ان اشتري كثيراً من الحاجات : فأنا لم آخذ نصف حاجاتي ، ويجب ان يعطيني بيار مالاً .

وذهبت لولو فنادت ريريت الخادم . وكانت تحسّ نفسها حزينة حزناً يكفي لاثنين . وهرع الخادم : وكان قد سبق لريريت ان لاحظت أنه كان دائماً يسرع في المجيء حين كانت هي التي تناديه . وقال :

– خمسة فرنكات .

وأضاف بلهجة لا تخلو من جفاف :

– كنتما ، انتما الاثنتين ، مرحتين جداً ، وكان الناس يسمعون ضحكاتكما من تحت .

وفكرت ريريت في شيء من الإشفاق بان لولو قد جرحته ، فقالت محمرة الوجه : إن صديقتي ثائرة الاعصاب قليلاً هذا الصباح .

فقال الخادم في حيوية :

– إنها جذابة . اشكرك يا آنسة .

وقبض الفرنكات الستة ثم مضى . وعرى ريريت بعض الدهشة ، ولكن انقضى الظهر وفكرت بأن هنري سيعود عما قليل الى البيت فيجد كلمة لولو : وكانت تلك لحظة ملآى بالعذوبة بالنسبة لها .

قالت لولو لأمينة الصندوق في لهجة متعالية :
— اريد ان يُرسل هذا كلّه **قبل مساء الغد** الى « فندق التياتر » ، شارع فندام .
والتفتت الى ريريت :
— انتهينا يا ريريت . نستطيع ان نذهب .
قالت امينة الصندوق : — باسم مَنْ ؟
— السيدة لوسيان غريسبان .
وألقت لولو معطفها على ذراعها وأخذت تركض ؛ وهبطت سلّم « الساماريتين » الكبير وهي تعدو . وكانت ريريت تتبعها ، وكادت بضع مرات تسقط لأنها لم تكن تنظر الى قدميها : لم تكن تنظر الى الطيف الدقيق الأصفر الأزرق الذي كان يرقص أمامها ! « صحيح ، رغم كل شيء ، أن لها جسداً داعراً .. » كانت ريريت كلما رأت لولو ظهرياً او جانبياً تفجأها دعارة أعضائها ، ولكنها لم تكن تدرك لذلك سبباً ، كان هذا انطباعاً . « إنها طرية ودقيقة ، ولكن لها شيئاً غير محتشم لا أستطيع إدراكه .. إنها تفعل كل ما في وسعها لتتقولب ، ولا بدّ أن هذا هو السرّ . هي تقول انها خجلة من مؤخرتها وهي مع ذلك ترتدي تنانير تلتصق بفخذيها . صحيح أن مؤخرتها صغيرة ، أصغر من مؤخرتي بكثير ، ولكنها أكثر بروزاً . انها مستديرة تماماً ، تحت خاصرتيها الهزيلتين ، وهي تملأ تنورتها جيداً ، فكأنما صُبّت فيها صبّاً ، ثم إنها ترقص . »
والتفتت لولو ، فتبادلتا البسمة . كانت ريريت تفكر في جسد صديقتها الفاجر بمزيد من الاستنكار والاسترخاء : نهدان صغيران مشمّران ، وبشرة ملساء ، شديدة الصفرة — يحسب من يمسّها انها من المطّاط — وفخذان طويلان وجسم طويل سوقيّ ذو أعضاء طويلة ؛ وفكرت ريريت : « جسم زنجية . انها تشبه زنجية ترقص الرومبا . » وبالقرب من الباب عكست مرآة لريريت صورة اعضائها الريّانة ، وفكرت وهي تتناول ذراع لولو : « انني

رياضية اكثر منها . صحيح انها تحدث اثراً اكبر حين نكون مرتديتين الثياب ، ولكني بالتأكيد أحسن منها وانا عارية . »

وبقيتا لحظة صامتتين ، ثم قالت لولو :

– كان بيار لطيفاً . وانت ايضاً كنت لطيفة يا ريريت . انني شاكرة لكما معاً حسن المعاملة .

كانت قد قالت ذلك بهيئة مكبوتة، ولكن ريريت لم تُلقِ اليها بالاً : إن لولو لا تحسن الشكر ابداً ، إنها مفرطة الخجل .

قالت لولو فجأة :

– يجب ان أشتري رافعة للنهود ، بالرغم من ان ذلك يضايقني .

قالت ريريت : « هنا ؟ » وكانتا تلمّان بحانوت للملابس .

– لا . وانما فكرت بذلك لأني رأيت واحدة منها . انني اشتري رافعاتي من محلات « فيشر » .

فصاحت ريريت :

– جادة مونبارناس ؟

ثم استطردت جادّة :

– ولكن تنبّهي جيداً يا لولو، الافضل ألاّ تبالغي في ارتياد جادة مونبارناس ، ولا سيما في مثل هذه الساعة : اننا سنقع على هنري ، وسيكون ذلك مزعجاً الى غير حدّ .

قالت لولو وهي ترفع كتفيها :

– على هنري ؟ ولكن لا ، لماذا ؟

فصبغ الحنق خدّي ريريت وصدغيها بالاحمرار :

– انك لا تتغيّرين يا صغيرتي لولو . حين يزعجك شيء ما ، تنكرينه بكل بساطة . إن لديك رغبة في ان تقصدي محلاّت فيشر ، فاذا بك تعتقدين بان هنري لا يمرّ في جادة مونبارناس . وانت تعلمين جيداً انه يمرّ فيها كل يوم عند الساعة السادسة ، فهذه هي طريقه . لقد قلت لي ذلك انت نفسك :

انه يصعد طريق « رين » ، ويذهب الى زاوية جادة راسباي ينتظر الاتوبيس .

قالت لولو :

– أولاً ، الساعة لم تتجاوز الخامسة ، ثم إنه ربما لم يكن في المكتب : فلا بدّ انه تمدّد في سريره بعد الكلمة التي كتبتها له .

قالت ريريت فجأة :

– ولكن هناك فرعاً آخر لفيشر يا لولو ، وانت تعلمين ذلك ، غير بعيد عن الاوبرا ، في شارع كاتر سبتمبر .

فقالت لولو بلهجة رخوة :

– صحيح ، ولكن ينبغي الذهاب اليه .

– آه ! كم احبّك يا صغيرتي لولو ! ينبغي الذهاب اليه ! ولكنه على بعد خطوتين ، وهو اقرب من ممر مونبارناس .

– انني لا احبّ ما يبيعونه هناك .

وفكرت ريريت في متعة بأن جميع محلات فيشر تبيع البضاعة نفسها . ولكن كانت تأخذ لولو ضروبُ عناد لا تُفهم : كان هنري بلا شك الشخص الذي كانت أزهد الناس في لقائه تلك اللحظة ، ومع ذلك فكأنها كانت تتعمّد ان تلقي بنفسها بين ساقيه ..

وقالت في ملاطفة :

– حسناً ، لنذهب الى مونبارناس .. والحق ان هنري طويل جداً بحيث سنراه قبل ان يرانا .

قالت لولو : – ثم ماذا ؟ اذا التقيناه التقيناه ، هذا كل شيء . إنه لن يأكلنا .

وأصرت لولو على الذهاب الى مونبارناس مشياً على القدمين ، وقالت انها كانت بحاجة الى الهواء . وتبعتا شارع السين ثم دلفتا الى شارع الاوديون وشارع فوجيرار . وامتدحت ريريت بيار ودلّلت للولو كم كان مناسباً لذلك الظرف .

وقالت لولو : ــ كم أحب باريس ، وكم ستأخذني الحسرة والندم !
ــ اسكتي يا لولو . انني لا اتصور ان تتحسّري على باريس حين يتاح لك حظّ الذهاب الى نيس .

فلم تجب لولو وأخذت تنظر ذات اليمين وذات الشمال بحزن واستقصاء .

وحين خرجتا من محلات فيشر سمعتا الساعة تدق السادسة . فأخذت ريريت لولو من مرفقها وارادت ان تقتادها بأقصى السرعة . ولكن لولو توقفت امام « بومان » بائع الزهور :

ــ انظري هذه الزهور الصحراوية يا عزيزتي ريريت . لو كان لدي صالون جميل لملأته منها .

قالت ريريت : ــ انني لا أحب الزهور في الآنية .

وكانت حانقة . وقد أدارت رأسها نحو شارع الرين ، فرأت بالطبع ، بعد دقيقة ، طيف هنري البليد يبرز . كان عاري الرأس ، وكان يرتدي سترة رمادية من التويد الكستنائي . وكانت ريريت تكره اللون الكستنائي . وقالت في عجلة :

ــ ها هو ، يا لولو ، ها هو !

قالت لولو : ــ اين ؟ اين هو ؟

ولم تكن دون ريريت قلقاً واضطراباً .

ــ انه خلفنا ، على الرصيف الآخر . لنسرع ، ولا تلتفتي اليه .

ومع ذلك ، فقد التفتت لولو ، وقالت :

ــ لقد رأيته .

وحاولت ريريت ان تجرّها ، ولكن لولو تصلّبت ، وكانت تنظر الى هنري في إحداد . وقالت اخيراً :

ــ أعتقد انه رآنا .

وكانت تبدو مذعورة ، وقد استسلمت دفعة واحدة لريريت وانقادت لها بوداعة وقالت ريريت وهي تلهث :

– بحق السماء يا لولو ، لا تلتفتي بعدُ . اننا سنسلك الطريق امامنا الى اليمين ، إنه شارع دولامبر .

وكانتا تسيران بسرعة وتدافعان المارّة . وكانت لولو تستسلم احياناً لجذب ريريت ، وكانت احياناً اخرى هي التي تجرّ ريريت قدماً . ولكنهما ما كادتا تبلغان زاوية شارع دولامبر حتى رأت ريريت ظلاً كبيراً أسمر خلف لولو ؛ ففهمت أنه كان هنري واخذت ترتجف غضباً . وكانت لولو تحتفظ بأجفانها مسبلة ، وكانت تبدو على رياء . « انها نادمة على حماقتها ، ولكن بعد فوات الأوان ، فهي وشأنها . »

وحثّتا خطاهما ؛ وكان هنري يتبعهما دون ان ينطق بكلمة . وقطعتا شارع دولامبر ومضتا تسيران في اتجاه الاوبسرفاتوار . وكانت ريريت تسمع طقطقة حذاء هنري ؛ وكان ثمة ايضاً نوعٌ من التحشرج الخفيف المنتظم يوقّع مشيتهم : انه تَنفّس هنري (كان هنري قوي التنفّس دائماً ، ولكن ليس الى هذا الحدّ : فلا بدّ انه قد ركض ليدركهما ، او لعلّه الانفعال) .

وفكرت ريريت : « يجب ان نتصرف كما لو انه لم يكن هنا . ألاّ يبدو علينا اننا نشعر بوجوده . » ولكنها لم تستطع ان تمتنع عن ان تنظر اليه من طرف عينها . كان ابيض كالقماش المغسول ، وكان يسبل جفونه حتى لتبدو عيناه مغلقتين . « كأنه نائم واقفاً » كذلك فكرت ريريت في شيء من الخوف . وكانت شفتا هنري ترتجفان ، وعلى شفته السفلى أخذ طرفٌ صغير من التفتا الأحمر يرتجف هو ايضاً . وكان هناك النَفَس كذلك ؛ النَفَس المنتظم الأبحّ الذي كان ينتهي الآن بنغمة موسيقية مخنّة . وكانت ريريت تستشعر الضيق : انها لم تكن تخاف هنري ، ولكن المرض والانفعال كانا دائماً ما يعودان عليها ببعض الخوف . وبعد فترة ، مدّ هنري يده على مهل ، من غير ان ينظر ، وأمسك بذراع لولو . فلوت لولو فمها كما لو انها توشك على البكاء ، وتخلّصت وهي ترتعش .

وأطلق هنري زفرة .

وأخذت ريريت رغبة جنونية في التوقّف : كان لديها وجع في الخاصرة ، وكانت اذناها تطنّان . ولكن لولو كانت تعدو تقريباً ، كانت هي ايضاً تبدو كالنائم واقفاً . وأحسّت ريريت أنها لو تركت ذراع لولو وتوقفت ، لاستمر كلاهما يعدو جنباً الى جنب ، أبكمين ، ممتقعين كالأموات ، مغمضي العيون .

وأخذ هنري يتكلم ، فقال بصوت غريب أبحّ :

– عودي معي الى البيت .

فلم تجب لولو . وأضاف هنري بالصوت الأبحّ نفسه ، الخالي من اي لهجة :

– انك زوجتي . عودي معي الى البيت .

وأجابت ريريت وهي تكزّ على أسنانها :

– انت ترى جيداً انها لا تريد ان تعود . فدعها وشأنها .

فلم يَبْدُ عليه أنه سمعها . وكان يردّد :

– انا زوجك . واريد ان تعودي معي الى البيت .

قالت ريريت بصوت ثاقب :

– ارجوك ان تدعها وشأنها . انك لن تفيد شيئاً من مضايقتها على هذا النحو . حُلّ عنّا .

فأدار نحو ريريت وجهاً مندهشاً وقال :

– انها زوجتي . فهي لي ، واريد ان تعود معي الى البيت .

وكان قد أخذ ذراع لولو ، ولم تتخلّص لولو هذه المرة ؛ وقالت ريريت :

– إذهب عنّا .

– انني لن أذهب . وسأتبعها الى كل مكان . اني اريد ان تعود الى البيت .

وكان يتحدث في جهد . وفجأة ، كشّرَ تكشيرة كشفت عن أسنانه وصاح بكل قواه :

– إنك لي !

والتفت بعض المارّة وهم يضحكون . وكان هنري يهزّ ذراع لولو ويهدر

كالحيوان وهو يزمّ شفتيه . ومن حسن الحظ ان مرّت في تلك اللحظة سيارة تاكسي فارغة ، فأشارت ريريت اليها فتوقفت . وتوقفت هنري كذلك . وشاءت لولو ان تتابع سيرها ، ولكنهما امسكا بها في شدة ، كلّ من جانب .

وقالت ريريت وهي تجذب لولو نحو الطريق :

– ينبغي ان تفهم انك لن تعيدها اليك ابداً بمثل هذا العنف .

وقال هنري وهو يجذبها الى الجهة المعاكسة :

– دعيها ، دعي زوجتي .

وكانت لولو رخوة كرزمة من ثياب . وصاح السائق نافد الصبر :

– أتصعدون ام لا تصعدون ؟

وتركت ريريت ذراع لولو وأمطرت يديْ هنري بالضربات . ولكنه بدا وكأنه لا يُحسّ بها . وبعد لحظة تراخى وأخذ ينظر الى ريريت نظرة بليدة ، ونظرت ريريت اليه كذلك . كانت قد جهدت لكي تجمّع افكارها ، وكان اشمئزاز كبير قد اكتسحها . وظلاّ على هذا النحو لحظات ، وعيناها في عينيه ؛ وكانا كلاهما يلهثان . ثم تداركت ريريت نفسها ، فأمسكت بلولو من قامتها وجرّتها حتى السيارة .

وقال السائق : – اين نذهب ؟

وكان هنري قد تبعهما ، واراد ان يصعد معهما . ولكن ريريت دفعته بكل قواها وأغلقت الباب على عجل ، وقالت للسائق :

– اوه ! هيّا انطلق ، انطلق . سنقول لك العنوان فيما بعد .

وأقلعت السيارة ، وتداعت ريريت للسقوط في جوف السيارة . وفكرت : «كم كان ذلك مبتذلاً ! » وكانت تشعر بالحقد على لولو . وسألتها بلطف :

– الى اين تريدين ان تذهبي ، يا صغيرتي لولو ؟

فلم تجب لولو . فأحاطتها ريريت بذراعيها وقالت بلهجة إقناع :

– يجب ان تجيبيني . هل تريدين ان أوصلك الى بيت بيار ؟

فقامت لولو بحركة اعتبرتها ريريت اشارة موافقة . فمالت الى أمام وقالت :
– شارع مسين رقم ١١ .
وحين ارتدت الى خلف ، كانت لولو تنظر اليها نظرة غريبة ، فبدأت ريريت تقول :
– ماذا هناك ...
فهدرت لولو :
– اني أحتقرك ، اني احتقر بيار ، اني احتقر هنري . ماذا تريدون جميعاً مني ؟ انكم تعذبونني .
وتوقفت وقد اعتكرت جميع ملامحها ، فقالت ريريت في لهجة هادئة :
– ابكي ، ابكي ، إن هذا يعود عليك بالخير .
وانطوت لولو وأخذت تنشج . وأخذتها ريريت بين ذراعيها وضمتها اليها . وكانت تلامس شعرها بين الفينة والفينة. ولكنها، في صميمها ، كانت تستشعر البرودة والاحتقار . وحين توقفت السيارة ، كانت لولو قد هدأت . فمسحت عينيها ووضعت على خديها المسحوق الأبيض ، وقالت في ملاطفة :
– أعذريني ، كان ذلك مثيراً للأعصاب . انني لم أطق ان اراه في تلك الحالة . كان يؤلمني .
فقالت ريريت وقد استردت هدوءها :
– كان يشبه قرداً مسناً .
فابتسمت لولو . وسألتها ريريت :
– متى أراك ثانية ؟
– اوه ، ليس قبل الغد . هل تعرفين ان بيار لا يستطيع ان يُنزلني عنده بسبب امه ؟ انني في « فندق التياتر » . وباستطاعتك ان تأتي مبكرة ، حوالي الساعة التاسعة ، اذا كان ذلك لا يزعجك ، لأنني سأذهب بعد ذلك لرؤية امي .
كانت ممتقعة ، وفكرت ريريت في حزن انها فظيعة ، تلك الطريقة التي

كانت لولو تستطيع بها ان تتحلّل . وقالت :

ـ لا تجهدي نفسك اكثر مما ينبغي هذا المساء .

فقالت لولو : ـ انني متعبة بشكل فظيع ، وأرجو ان يتركني بيار اعود مبكّرة ، ولكنه لا يفهم قط هذه الأشياء .

واستبقت ريريت السيارة وطلبت من سائقها ان يوصلها الى بيتها . وكانت قد فكرت لحظة بأنها ستقصد السينما ، ولكن تلك الرغبة زايلتها . وألقت قبعتها على كرسي ، وخطت خطوة نحو النافذة . ولكن السرير كان يجتذبها ببياضه وعذوبته ونداوته نحو جوفه الظليل . كانت تريد ان تلقي نفسها فيه ، وأن تُحسّ بمداعبة الوسادة لخدّيها الملتهبين : « انني قوية ، وانا التي فعلت كل شيء من أجل لولو ، وهأنذا الآن وحيدة ، لا يفعل أحدٌ شيئاً لي . » وأحسّت من الاشفاق على نفسها ما جعلها تشعر بفيض من الغصّات تصعد الى حنجرتها . « سوف يذهبان إلى نيس ، ولن أراهما بعد . انني انا التي صنعت سعادتهما ، ولن يفكرا بعدُ بي . سأبقى أنا هنا أعمل ثماني ساعات في النهار ، أبيع مجوهرات مزيفة عند « بروما » .

وحين تدحرجت الدموع الاولى على وجنتيها ، تداعت للسقوط برفق على سريرها ، وكانت تردّد وهي تبكي بمرارة : « في نيس .. في نيس .. تحت أشعة الشمس ،.. في الريفييرا .. » .

٣

« تفه ! »

ليل أسود . لكأنّ أحداً كان يمشي في الغرفة : رجل يلبس مشّاية . كان يقدّم رِجْلاً في حذر ، ثم الأخرى ، من غير ان يستطيع تحاشي قرقعة بسيطة للأرض الخشبية . وكان يتوقّف ، فتسود لحظة صمت ، ثم يستعيد كالأحمق سيره الضّال ، محمولاً فجأة الى الجانب الآخر من الغرفة .

كانت لولو تحسّ بالبرد ، وكانت الأغطية أخفّ مما ينبغي. وكانت قد قالت « تفه ! » بصوت مرتفع فأخافها جرْس صوتها .

تفه ! انني واثقة الآن بأنه ينظر الى السماء والنجوم ، ويشعل سيكارة ، انه في الخارج ، ولقد قال إنه كان يحبّ لون سماء باريس البنفسجي . إنه عائد الى البيت بخطى صغيرة ، بخطى صغيرة : إنه يُحسّه شاعرياً حين يفعل ذلك ، لقد قال لي هذا ، وخفيفاً كبقرةٍ بعد حلْبها ، إنه لا يفكّر في ذلك بعد — اما انا فقد تلطّخت . إنه لا يدهشني ان يكون طاهراً ، وهو في هذه اللحظة قد ترك قذارته هنا ، في الظلام ، وهنا منشفة ممتلئة بها ، والشرشف رطبٌ في وسط السرير ، وانا لا أستطيع ان أمدّ ساقيّ لأنني سأحسّ الرطوبة تحت جلدي ، أية قذارة ، وهو جافّ كل الجفاف ، وقد سمعته يصفر تحت نافذتي حين خرج ؛ كان هنا في لباسه التحتيّ ، جافاً ونضراً في ثيابه الجميلة ، بمعطفه الربيعي ، يجب الاعتراف بأنه أنيق الملبس ، وتستطيع اية امرأة ان تعتزّ بالخروج معه ، كان تحت نافذتي ، وكنت انا عارية في الظلام ، وكنت أحسّ البرد ، وكنت افرك بطني بيديّ لأني كنت أحسبني ما زلت ملوّثة . لقد قال : « سأصعد دقيقة لأرى غرفتك . » وقد بقي ساعتين ، وكان السرير يصرّ — هذا السرير الحديدي الصغير القذر . انني أتساءل من أين عثر على هذا الفندق ؛ كان قد قال لي انه سبق ان أمضى فيه خمسة عشر يوماً ، واني سأكون مرتاحة فيه ، والحق انها غرف عجيبة ، رأيت اثنتين منها ، ولم يسبق لي ان رأيت في مثل صغرها ، ثم انها تغصّ بالأثاث ، ففيها مقاعد جلدية منفوخة وأرائك وطاولات صغيرة ، وهي أسِنَةٌ بالحبّ ؛ ولست ادري اذا كان قد قضى فيها خمسة عشر يوماً ، ولكنه بالتأكيد لم يقضها وحده ، لا بدّ انه لا يحترمني كثيراً ، وإلاّ لما حشرني هنا . كان خادم الفندق يقهقه مازحاً حين صعدنا ، وهو جزائري ، وانا اكره هؤلاء الأشخاص وأخاف منهم ؛ لقد نظر الى ساقيّ ، وبعد ذلك عاد الى المكتب ، ولا بدّ انه قال لنفسه : « هكذا اذن ، انهما يفعلان ذلك » ثم تصوّر أشياء قذرة ،

ويبدو انه مريع ، ما يفعلونه هناك ، للنساء ؛ لئن وقعت احداهن تحت يدهم ، بقيت عرجاء طوال حياتها ؛ وقد ظللت ، فيما كان بيار يضايقني ، افكر بهذا الجزائري الذي كان يفكر بما كنت أفعله وكان يتصوّر قذارات أسوأ مما كان الواقع . إن في الغرفة أحداً !

وأمسكت لولو أنفاسها ، ولكن سرعان ما تلاشت الطقطقة . إن بي ألماً بين الفخذين ، يتأكلني ويلهبني ، وإن بي رغبة أن أبكي ، وسيكون الأمر كذلك كل ليلة ، الا الليلة القادمة ، لأننا سنكون في القطار . وعضت لولو شفتها وارتعشت لأنها كانت تتذكر أنها قد أنّت . هذا غير صحيح ، فأنا لم أئنّ ؛ كل ما في الأمر اني تنفّست تنفّساً قوياً بعض الشيء ، لأنه ثقيل جداً ، وحين يكون عليّ يقطع لي نَفَسي . لقد قال لي : « انت تئنّين ، تنالين المتعة » انني استفظع الكلام في أثناء الفعل ، وأودّ لو ننسى أنفسنا ؛ أما هو ، فلا يكفّ عن النطق بالقذارات . انا لم أئنّ ، فأولاً لا أستطيع ان انال متعة ، وهذا واقع ، وقد قاله الطبيب ، إلا ان أمنح نفسي هذه المتعة ، بنفسي . وهو لا يريد ان يصدّق ذلك ، إنهم لم يريدوا قط ان يصدّقوه ، وقد كانوا يقولون : « السبب هو ان البداءة معك كانت سيئة ، اما انا فسأعلّمك اللذّة » ؛ وقد كنت أدعهم يقولون ذلك ، وكنت اعرف شأني في ذلك ، فهذا امرٌ طبيّ : غير ان ذلك يغيظهم .

كان ثمة من يصعد الدرج . إنه واحدٌ يعود الى غرفته . الا ان يكون هو الذي يعود ، يا إلهي . إنه لجدير بذلك ، اذا عاودته الرغبة . إنه ليس هو ، فهذه خطى ثقيلة ، او أنه — وقفز قلب لولو في صدرها — لو كان الجزائري ، فهو يعلم اني كنت وحيدة ، وسيأتي ليطرق الباب ، وانني لا أستطيع ، لا أستطيع ان أتحمّل هذا ، كلا ، فالأمر يجري في الطابق تحتي ، هو شخص يعود الى غرفته ، فيضع المفتاح في القفل ، ويستغرق ذلك بعض الوقت ، فهو ثمل ، واني أتساءل عمن ينزل في هذا الفندق ؛ لقد التقيت بامرأة حمراء الشعراء ، بعد ظهر اليوم ، على الدرج ، وكان لها عينا امرأة

تتعاطى التخدير . اني لم أئنّ ! ولكنه انتهى طبعاً الى إثارتي بمداعباته كلّها ،
إنه يُحسن العمل ؛ وانا اكره الأشخاص الذين يحسنون العمل ، واوثر ان
انام مع رجل بكر .. انني احتقر ان أُثار ، وان يجفّ حلقي ، انني أخاف
وأحسّ مذاقاً في فمي واشعر بالمذلّة لأنهم يعتقدون أنهم يسيطرون عليّ ؛
وسأصفع بيار حين يتلبّس هيئته المزهوّة ويقول : « انني املك التكنيك »
يا إلهي ، عجباً لهاتيك اللواتي يعتقدن ان هذه هي الحياة ، ومن أجل ذلك
يرتدين ثيابهن ويغتسلن ويتجمّلن ، وجميع الروايات تكتب عن هذا ، ويفكرن
به دائماً ، ثم يكون هذا في نهاية المطاف : تذهب احداهن الى غرفة بصحبة
رجل يكاد يخنقها وينتهي به الأمر الى ان يبلّل بطنها . اريد ان انام ، اوه ،
ليتني أستطيع ان أنام قليلاً ، سأسافر غداً طوال الليل ، وسأكون محطمة .
واودّ رغم كل شيء ان اكون نضرة بعض النضارة لأستطيع ان أتسكّع في
نيس ؛ يبدو انها جميلة جداً ، ففيها شوارع ايطالية صغيرة ، وأقمشة ملوّنة
تجفّ في الشمس ؛ سأنصب مرسمي وسأرسم فتأتي فتيات صغيرات لينظرن
ما أفعل . قذارة ! (كانت قد تقدمت قليلاً فلامس جنبها اللطخة المرطبة
من الغطاء) انما اقتادني ليفعل هذا ! ليس ثمة من يحبني ، على الاطلاق . كان
يمشي الى جانبي وكنت اوشك ان أنهار ، وكنت انتظر كلمة عطف ، كان
بوسعه ان يقول : « احبك » صحيح اني ، لو قال ذلك ، لن اعود معه
الى البيت ، ولكن كنت اقول له كلمة لطيفة ، وكنا نفترق صديقين ؛ كنت
انتظر ، وانتظر ، وكانت ريريت غاضبة ، وليس صحيحاً انه كان يشبه
قرداً مسنّاً ، ولكني كنت أعلم انها كانت تفكر بشيء كهذا ، كانت تنظر
اليه شزراً بعينين قذرتين ، عجيب كم هي تستطيع ان تكون شريرة ، وبالرغم
من هذا ، فانه حين أمسك بذراعي لم أصمد ، غير أنه لم يكن يريدني أنا ،
وانما كان يريد زوجته لأنه تزوجني ولأنه زوجي ؛ كان يذلّني دائماً ، وكان
يقول إنه أذكى مني ، وكل ما حدث انما هو غلطته ، فما كان عليه الاّ
عدم معاملتي من عل ، ولو فعل لكنت ما ازال معه . انا متأكدة انه غير

آسف علي الآن ، فهو لا يبكي ، وانما يهذي : هذا ما يفعله ، وهو مسرور كل السرور لأنه مستأثر وحده بالسرير ويستطيع ان يمدّ ساقيه الطويلتين . اودّ لو أموت . فكم أخشى ان يسيء الظنّ بي ؛ لم يكن بوسعي ان أشرح له شيئاً ، لأن ريريت كانت بيننا ، كانت تتكلم وتتكلم ويبدو عليها المظهر الهستيري . إنها الآن مسرورة ، وهي تهنّيء نفسها على شجاعتها ، وما ألأم هذا مع هنري الوديع كالحمل ! سأذهب . سأذهب . إنهم رغم كل شيء لا يستطيعون ان يقسروني على تركه كالكلب .

وقفزت خارج السرير وأدارت مفتاح النور . إن جورباً وقميصاً داخلياً يكفيان . ولم تهتمّ حتى بأن تسرّح شعرها لشدّة ما كانت مستعجلة ، والأشخاص الذين سيرونني لن يعرفوا اني عارية تحت معطفي الرمادي الكبير الذي يتدلى حتى قدميّ . اما الجزائري (وتوقّفت خافقة القلب) فينبغي ان اوقظه ليفتح لي الباب .

وهبطت على رؤوس أصابعها ، ولكنّ الدرجات كانت تطقطق واحدة واحدة ؛ ونقرت على زجاج المكتب ، فقال الجزائري :

— ماذا تريدين ؟

كانت عيناه ورديتين ، وشعره أشعث ؛ ولم يكن يبدو عليه انه يخيف .

وقالت لولو في جفاء :

— افتح لي الباب .

وبعد ربع ساعة كانت تدقّ الباب على هنري .

سأل هنري عبر الباب :

— من هناك ؟

— هذه أنا .

فلم يجب بشيء ، إنه لا يريد ان يدَعني أدخل بيتي . ولكني سأدقّ الباب حتى يفتح ، وسيرضخ بسبب الجيران .

وبعد دقيقة فُتح الباب وظهر هنري ممتقعاً ، وعلى أنفه بثرة ؛ وكان يرتدي منامته . وفكرت لولو في حنان : « إنه لم ينم » .

ـ لم أرد ان أذهب هكذا . كنت اريد ان أراك مرة اخرى .

وظل هنري على صمته . ودخلت لولو وهي تدفعه قليلاً . كم هو مرتبك ! إن المرء يعثر به دائماً في طريقه ، إنه ينظر إليّ بعينين مستديرتين ، متدليّ الذراعين ، لا يدري ما يصنع بجسمه . اسكت ، كفى ، اسكت ، انني ارى جيداً انك منفعل وانك لا تستطيع ان تتكلم .

وكان يبذل جهداً ليبتلع ريقه ، وكان على لولو نفسها ان تغلق الباب ، وقالت :

ـ أريد ان نفترق صديقين .

وفتح فمه كما لو كان يريد ان يتكلم ، واستدار عجلاً حول نفسه وفرّ . ما الذي يفعله ؟ لم تكن تجرؤ على اللحاق به . هل هو يبكي ؟ وسمعته فجأة يسعل : إنه في المرحاض . وحين عاد ، تعلّقت بعنقه وألصقت فمها على فمه : كانت تنبعث منه رائحة قيء . وانفجرت لولو باكية ، فقال هنري :

ـ انني مقرور .

فاقترحت عليه وهي تبكي :

ـ لننم ، فأنا أستطيع أن أبقى حتى صباح الغد .

وناما ، وكانت غصات دمع كبيرة تهزّ لولو لأنها وجدت من جديد غرفتها وسريرها الجميل النظيف والشعاع الأحمر في الزجاج . وكانت تفكر بأن هنري سيأخذها بين ذراعيه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث : كان متمدداً بطوله كما لو أن وتداً قد أضجع في السرير . إنه متصلب كما لو كان يتحدث الى سويسري ، وقد أخذت لولو رأسه بين يديها وحدّقت في عينيه : « إنك نقيّ ، انت ، انك نقيّ » فأخذ يبكي .

وقال : ـ كم انا شقيّ . لم يسبق لي قط ان كنت شقياً الى هذا الحدّ .

قالت لولو : ـ وأنا كذلك .

وبكيا طويلاً ، وبعد فترة ، اطفأت النور ووضعت رأسها على كتفه .
ليتنا نستطيع ان نبكي هكذا دائماً : نقيّين وحزينين ، كأننا يتيمان ؛ ولكن هذا غير ممكن ، هذا لا يحدث في الحياة . كانت الحياة موجة هائلة توشك ان تنقض على لولو وتنتزعها من ذراعي هنري . يدك ، يدك الكبيرة . إنه مزهوّ بها لأنها كبيرة ، وهو يقول إن المتحدرين من الاسر العريقة يملكون دائماً أطرافاً كبيرة . إنه لن يأخذ بعدُ قامتي بين يديه .—كان يدغدغني قليلاً ، ولكني كانت مزهوّة لأنه كان يستطيع تقريباً ان يجمع أصابعه حول قامتي . وليس صحيحاً انه عنّين ، إنه نقيّ ، نقيّ— وكسولٌ بعض الشيء . وابتسمت عبر دموعها ، وقبلّته تحت ذقنه .

قال هنري : — ما الذي سأقوله لأهلي ؟ إن امي ستموت كمداً .

إن السيدة كريسبان لن تموت اذا عرفت ، بل هي ستنتصر على العكس . سيتحدثون عني ، وهم على المائدة ، خمستهم ، بلهجة توبيخ ، كأشخاص يعرفون من الأمر كثيراً ولكنهم لا يريدون ان يقولوا كل شيء بسبب الصغيرة التي لا تتجاوز السادسة عشرة ، والتي هي أصغر سناً من ان يتحدث الناس أمامها عن بعض الأمور . ستضحك في داخلها لأنها ستعرف كل شيء ، إنها تعرف دائماً كل شيء وهي تحتقرني . يا لهذا الوحل كله ! ثم إن الظواهر ضدي ، وابتهلت اليه تقول :

— لا تقل لهم على الفور ، قل انني في نيس بسبب صحتي .

— لن يصدقوني .

وقبّلت هنري بضع مرات في وجهه .

— انك يا هنري لم تكن لطيفاً معي بما فيه الكفاية .

قال هنري : — هذا صحيح ، لم اكن لطيفاً بما فيه الكفاية .

وفكر لحظة ثم أضاف :

— ولكنك انت ايضاً لَم تكوني لطيفة بما فيه الكفاية .

قالت لولو : — انا ايضاً . اوه ! ما أشقانا !

وكانت تبكي بكاء شديداً حتى حسبت انها ستختنق : لن يلبث النهار ان يطلع ، وسنذهب . إن المرء لا يفعل ابداً ، ابداً ، ما يريده . انه محمول على ذلك . وقال هنري :

– ما كان لك ان تذهبي على هذا النحو .

فتنهدت لولو :

– كنت احبك كثيراً ، يا هنري .

– والآن ، الا تحبينني بعد ؟

– مع من تذهبين ؟

– مع أشخاص لا تعرفهم .

فقال هنري غاضباً :

– كيف تعرفين أشخاصاً لا أعرفهم ؟ أين رأيتهم ؟

– دعك من هذا يا حبيبي ، يا صغيري غوليفر ، لا احسبك ستغار الآن غيرة الازواج ؟

فقال هنري باكياً :

– انك ذاهبة مع رجل !

– اسمع يا هنري ، اقسم لك ان لا ، اقسم لك برأس امي ؛ إن الرجال يثيرون اشمئزازي اكثر مما ينبغي في هذه الفترة . وانما انا ذاهبة مع زوج وزوجته ، صديقين لربريت ، وهما مسنّان . اريد ان اعيش وحدي ، وسوف يجدون لي عملاً ؛ اوه ! يا هنري ! ليتك تعرف كم أنا بحاجة الى ان اعيش وحدي ، وكم يثير هذا اشمئزازي .

قال هنري : – ماذا ؟ ما الذي يثير اشمئزازك ؟

– كل شيء (وقبلّته) ليس هناك غيرك من لا يثير اشمئزازي يا حبيبي ؛

وأمرّت يدها تحت منامة هنري وداعبته طويلاً في كل انحاء جسمه . وارتعش تحت يديها الباردتين ، ولكنه استسلم لها ، واكتفى بالقول :

– سأصاب بالأذى .

كان فيه ، بالتأكيد ، شيء ما قد تحطّم .

في الساعة السابعة ، نهضت لولو متورمة العينين من الدموع ، وقالت في وهن :

ـ يجب ان أعود الى هناك .

ـ أين ، هناك ؟

ـ انني في فندق « التياتر » بشارع فاندام . وهو فندق قذر .

ـ إبقيْ معي .

ـ لا يا هنري ، أرجوك ، لا تلحّ ، لقد قلت لك إن هذا كان مستحيلاً .

« إن الموج هو الذي يحملك ، إنها الحياة ؛ ليس بوسع المرء ان يحكم ولا ان يفهم ، فليس امامه الا ان يستسلم . سأكون غداً في نيس . »

ودلفت الى المغاسل لتغسل عينيها في الماء الفاتر . وارتدت معطفها وهي ترتجف . « إنه يشبه القدر . المهم ان أستطيع النوم في القطار ، هذه الليلة ، وإلاّ وصلت الى نيس ميتة . أرجو ان يكون قد قطع لنا في الدرجة الاولى ؛ وستكون هذه هي المرة الاولى التّي اسافر فيها بالدرجة الاولى . إن الأمور هكذا دائماً : ها قد انقضت سنوات وأنا راغبة في القيام برحلة طويلة بالدرجة الاولى ، وفي اليوم الذي يتاح لي فيه ذلك ، أجدني قد فقدت الرغبة تقريباً . » وكانت مستعجلة الآن في الذهاب ، لأن هذه اللحظات الأخيرة كانت تنطوي على شيء ما لا يُطاق .

وسألت : ـ ما الذي ستعمله مع غالوا ؟

كان غالوا قد أوصى هنري على لافتة إعلان ، فصنعها هنري ولكن غالوا عدل عنها . قال هنري :

ـ لا ادري .

وكان قد قبع تحت الغطاء ، حتّى بات لا يُرى منه بعدُ الا شعره وطرف من أذنه . وقال بصوت بطيء رخو :

ـ اودّ لو أنام طيلة ثمانية أيام .

قالت لولو : ـ وداعاً يا حبيبي .

ـ وداعــاً .

ومالت عليه فأزاحت الغطاء قليلاً وقبلّته في جبينه . وظلت وقتاً طويلاً عند العتبة ، من غير ان تعزم على اغلاق باب الشقة . وبعد لحظة ، صرفت بصرها وشدت بقوة على المقبض . فسمعت صوتاً خشناً وحسبت انه سيغمى عليها : كانت قد عرفت انطباعاً مماثلاً حين أهيلت اول حفنة من الترّاب على نعش أبيها .

« لم يكن هنري لطيفاً . كان بوسعه ان ينهض ليرافقني حتى الباب . ويخيّل إليّ اني كنت أكون أقل شقاء لو كان هو الذي أغلقه . »

٤

قالت ريريت وهي تنظر بعيداً :

ـ لقد فعلت هذا ! لقد فعلت هذا !

كان الوقت مساء . وكان بيار قد تلفن لريريت حوالي الساعة السادسة ، فذهبت تلقاه في مقهى « الدوم » .

وقال بيار : ـ ولكن ، ألم يكن المفروض ان تريها انتِ هذا الصباح حوالي الساعة التاسعة ؟

ـ لقد رأيتها .

ـ ألم تكن هيئتها غريبة ؟

قالت ريريت : ـ لا . اني لم الاحظ شيئاً . كانت متعبة بعض الشيء ، ولكنها قالت لي انها أرقت في الليل بعد ذهابك لأنها كانت مهتاجة جداً بفكرة انها ستشاهد نيس ، ولأنها كانت خائفة بعض الشيء من الفتى الجزائري .. بل اسمع : لقد سألتني هل أعتقد انك قطعت تذكرتين بالدرجة الاولى ، وقالت انه كان حلم حياتها ان تسافر بالدرجة الاولى .

وأضافت ريريت بعزم :

– لا ، انني على يقين من انه لم يكن في رأسها شيء شبيه بذلك ؛ على الأقل ما دمت موجودة هنا . لقد بقيت معها ساعتين ، وأنا شديدة الملاحظة بالنسبة لمثل هذه الأمور ، وأستغرب ان يكون قد فاتني شيء . ربما قلت لي إنها غامضة جداً ، ولكني أعرفها منذ أربعة أعوام ، وقد رأيتها في ظروف كثيرة ، وانا املك عزيزتي لولو على طرف اصبعي .

– إن آل تكسييه هم الذين قرروا ذلك إذن .. هذا غريب !

وحلم بضع لحظات ثم استطرد فجأة :

– إنني أتساءل عمن أعطاهم عنوان لولو . انني انا الذي اخترت الفندق ، ولم يسبق لها قط ان سمعت باسمه .

وكان يلعب شارداً برسالة لولو ، وكانت ريريت متضايقه ، لأنها كانت تودّ لو تقرأها ، ولم يكن هو يعرض عليها ذلك . وانتهت الى سؤاله :

– متى تلقّيتها ؟

– الرسالة ؟

فمدّها لها ببساطة :

– خذي . تستطيعين ان تقرئي . لابدّ انها وُضعت عند البواب - والي الساعة الواحدة .

وكانت وريقة رقيقة بنفسجية ، كالورق الذي يباع في مكاتب التبغ :

« حبيبي الكبير .

« لقد جاء آل تكسييه (ولا أعرف من أعطاهم العنوان) وسأحدث لك مشقة كبيرة ، لأنني لن أذهب يا حبيبي ، يا عزيزي بيار . انني باقية مع هنري لأنه شقيّ اكثر مما ينبغي . لقد ذهبوا اليه هذا الصباح ولم يكن يريد ان يفتح لهم ، وقالت السيدة تاكسييه انه لم يكن يملك بعد وجهاً بشرياً . وقد كانوا على غاية اللطف ، وقد فهموا أعذاري ، وهي تقول إن جميع الاخطاء كانت من طرفه ، وانه دبّ ولكنه في حقيقته غير رديء . وتقول انه كان بحاجة الى هذا ليدرك كم كان متعلقاً بي . لا ادري من أعطاهم

عنواني ، وهم لم يصرّحوا بذلك ، ولابدّ انهم رأوني اتفاقاً حين خرجت من الفندق هذا الصباح مع ريريت . وقد قالت لي السيدة تكسييه انها كانت تعرف جيداً انها كانت تطلب مني تضحية هائلة ، ولكنها كانت تعرفني معرفة كافية لتعلم انني لن أتهرّب من هذه التضحية . انني متحسّرة على رحلتنا الجميلة الى نيس ، يا حبيبي ، ولكني فكرت بأنك ستكون اقلنا شقاء لأنك تملكني دائماً . انني لك من كل قلبي وبكل جسمي ، وسنلتقي كما كنا نلتقي في السابق . ولكن هنري سيقتل نفسه اذا فقدني ، فهو لا غنى له عني ؛ واؤكد لك انه لا يسليني اطلاقاً ان أحسّ بمثل هذه المسؤولية . أرجو ألاّ ترتدي سحنتك تلك العابسة التي تخيفني كثيراً ، فانت لا تريد ان أشعر بالندم ، أليس كذلك ؟ انني عائدة الساعة الى هنري ، وأراني متوترة الأعصاب قليلاً حين افكر بأني سأراه ثانية في هذه الحالة ، ولكني سأملك الشجاعة لطرح شروطي . انني اولاً اريد مزيداً من الحرية لأنني احبك ، واريد ان يترك روبير وشأنه والاّ يقول بعدُ كلمة سوء عن امي . انني يا حبيبي حزينة جداً ، واودّ لو انك كنت هنا ، فانني بشوق الى لقياك ، وانني اشدّك إليّ واحسّ ملامساتك عبر جسمي كله . سأكون غداً في مقهى « الدوم » عند الساعة الخامسة — لولو . »

— يا عزيزي المسكين بيار !

وكانت ريريت قد تناولت يده . وقال بيار :

— اصارحك بأني انما انا متأسف من أجلها هي ! لقد كانت بحاجة الى الهواء والشمس .. ولكن ما دامت قد قررت هكذا .. لقد كانت أمّي تحدث لي مشاكل مريعة . إن المقصورة هي ملكها ، ولم تكن تريد ان آخذ امرأة اليها .

قالت ريريت بصوت متقطع :

— آه ؟ آه ؟ حسناً جداً إذن ! إن الجميع مسرورون ، على هذا النحو !

وتركت يد بيار تسقط : وكانت تحسّ أسفاً مريراً يغمرها ، من غير ان تدري لماذا .

الفهرست



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف:
نيكول بيرسودر